قراءة في فكر السيد الشهيد

محمد باقر الصدر

عماد الكاظمي

منشورات معالم الفكر

قراءة في فكر
السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره

دور الإنسان و المجتمع في بناء الدولة

عماد الكاظمي

الكتاب: قراءة في فكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر
-دور الإنسان والمجتمع في بناء الدولة-
المؤلف: عماد الكاظمي.
الطبعة: الأولى
الناشر: معالم الفكر / الكاظمية المقدسة.
لبنان حارة حريك مجاور مسجد الحسنين.
السنة: ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٣١٩) لسنة ٢٠١١م

الإهداء

* إلى معلم الأجيال أنَّ المبادىء لن تقهر أو تموت ..

* إلى مَنْ صرخ بوجه الطغاة : لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ..

* إلى مَنْ نادى من أرض التضحية الفداء .. يوم عاشوراء الخالد ..

هل من ناصرنا ينصرنا .. فأتاه نداء الأحرار من الأعماق لبيك يا حسين..

* أقدم هذا المجهود .. ترجمة لذاك النداء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد المصطفى وعلى آله الطيبين الطاهرين ..

إنَّ الأمم التي تنشد رقيّها وتقدمها لا يمكنها أنْ تتقدم وتحقق ما تصبو إليه ما لم تضع علماءها ومفكريها في مقامهم الذي يستحقونه، فكل أمة تفتخر بتراثها دون الأمم الأخرى من العلم والثقافة والتراث الذي ورثته وتريد أنْ تورِّثه لأجيالها، والأمة الإسلامية عامة والعراقية خاصة تملك من ذلك ما يجعلها في المراتب المتقدم لأقرانها من الدول الأخرى إنْ لم نقُل في المرتبة الأولى، فلو رجعنا إلى تراث أمتنا الإسلامية لرأينا ذلك جلياً من خلال الحث على العلم والعلماء وطلب العلم ويمكننا القول إنَّ المسلمين من الأمم الفريدة التي حثت أبناءها على ذلك دون غير من الأمم بتفاوتٍ واضحٍ لمن يحقق فيه، فالنداء الإلهي للمسلمين غير خفيٍّ سواء في القرآن الكريم أم السنة الشريفة، فقد ذكر العلماء أنَّ أول آية نزلت على النبي ﷺ كانت تتضمن العلم والدعوة إليه حيث قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، وبعدها كانت الدعوات متلاحقة للعلم والعلماء فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

(١) سورة العلق: الآيات ١-٤

ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] وغيرها من الآيات المباركة إضافة للأحاديث الشريفة.

إذن فالعلم أمرٌ عظيمٌ تحتاجه الأمة التي تبغي سعادتها وتقدّمها ويجب علينا الاهتمام به، لذلك نرى تخرُّج آلاف العلماء من هذه الأمة الذين ملأت الآفاق علومهم بلدان الشرق والغرب، فلا تكاد تخلو بقعة لم تنتفع من علماء المسلمين ..

ومن أكابر هؤلاء الأعلام المسلمين في القرن الماضي المفكر الإسلامي الكبير الفقيه الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه) الذي تعلَّم من صباه التعاليم الإسلامية التي كان لها دور في التأثير على شخصيته وصقلها ونبوغه بالرغم من بيئته الدينية والعلمية التي تحيط به، حتى غدا علماً من الأعلام الذين يُشار إليهم بالبنان من خلال علومه وأفكاره وخطواته الإصلاحية الاجتماعية والسياسية التي كان يُراد بها إيجاد الأرضية الملائمة للدولة الإسلامية أو الإنسانية التي يسعد الإنسان تحت ضل عدلها ونظامها، ولكن هذه الأفكار والأطروحات والخطوات الكبيرة التي كانت بارزة آثارها في المجتمع لم ترق للطغاة والمستبدين الذين يريدون أنْ يستعبدوا الناس لأهوائهم ولذاتهم وملكهم فلم يهدأ لهم بال وكذا لأسيادهم ما لم يتمكنوا من إخماد هذه الحناجر وخنقها في مهدها، وكسر تلك الأقلام التي تكتب لأمتها المبادىء والأخلاق الفاضلة والدعوة الصالحة، فكان من تلك الشرذمة ما

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨

(٢) سورة الزمر: الآية ٩

كان من الأفعال التي تندى لها جبين الإنسانية من القتل والتشريد والسجن وأنواع العذاب مما لن تستطيع الأقلام وصفه، فكان ضحية تلك الحملة الفرعونية النمرودية البعثية في العراق التي أهلكت الحرث والنسل أنْ تكون تلك العقول الفذة والقلوب العامرة بالإيمان والتقوى ضحية أفعالهم الخبيثة، فكان من كوكبة هؤلاء الشهداء السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه) فكانت شهادته من أكبر الخسارات التي تعرض لها المسلمون والمؤمنون بل الإنسانية كلها، ومن أعظم ما من وصف هذه الخسارة التي لن يمكن وصفها تلميذه السيد "كاظم الحائري" في تعليقته على الفتاوى الواضحة بقوله: ((والله يعلم كم يعصر قلبي حينما أراني أُعلِّق على هذا الكتاب المبارك في حين أنني لست إلا تلميذاً صغيراً وحقيراً لهذا الأستاذ الكبير الذي عقمت الأمهات أنْ يلدن مثله، ولو أنَّ جميع مآثم البعث العراقي وجرائمهم التي لا تحصى جُعلت في كفةٍ وقتلهم لهذا الإنسان الذي كان تحفة الرب لأهل زمانه في كفة ثانية لرجحت الكفة الأخيرة على الأولى وإنا لله وإنا إليه راجعون))[1]، ولست في هذه الصفحات أحاول التحدث عن سيرته وما قيل فيه وإنْ كان التقصير واضحاً في ذلك ولكن أحاول أنْ أُعرِّف القارىء أيّ خسارة قد خسرتها الأمة بفقد أمثال هؤلاء الذين يُعد قتلهم ثلمة للإسلام لا تسد، فإنهم حقيقة بركات الأرض، بل هم تحفة الله إلينا .. ولكني -وأنا القاصر- أحاول أنْ أشارك بكلمات لعلي أُوَفَّق لإحياء تلك الدماء الزاكية والنفوس الطاهرة التي كان همها إنقاذ الناس من الهلكات وأرجو أنْ

---

(١) الفتاوى الواضحة ص٣

يكون هذا البحث رد جزءٍ ضئيلٍ لذلك الإحسان الذي وصل أقصى مداه بتقديم الروح هدية من الآخرين ولا أعتقد أنَّ كرماً وجوداً أسخى من ذلك يمكن أن يقدمه..

إنَّ الكتابة والبحث في فكر السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه) بحث مهم ويحتاج إلى تحقيق وتدقيق في المطالب والأفكار العميقة التي يطرحها [1]، والتي تؤكد على عقليته الفذة في الوصول إلى حقائق الأمور، وطرحها بأسلوب علمي وعملي، نسأله تعالى أنْ يوفِّقنا لإحياء تراث أعلام أمتنا؛ ليطلع الأجيال على تراثهم فينهلوا منه العطاء الخالد، والمعين الذي لا ينضب في سيرتهم العلمية والعملية لبناء مجتمع متكامل صالح.

الكاظمية المقدسة

١٠ ذو الحجة الحرام ١٤٣٠هـ

٢٠٠٩/١١/٢٩م

---

(١) إنَّ هذه الصفحات تم كتابتها للمشاركة في "مسابقة الشهيد الصدر الثانية" التي أقامتها "مؤسسة المنتدى الثقافي العراقي" عام ٢٠٠٩م، ولم يتطرق البحث إلى سيرة الشهيد الصدر لوجود مؤلفات متعددة قد تناولت سيرته، فضلاً عن الابتعاد في البحث عن الفكرة التي نريد الكتابة فيها، ومن أفضل المواقع الإلكترونية التي وثقت أغلب تراثه المطبوع والدراسات التي تناولت فكره هو "دائرة معارف الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر" وللتفصيل يراجع: www.mbsadr.com

تمهيد:

إنَّ الحديث عن الإنسان من أعظم الأحاديث وأهمها، لأنه يبحث عن أكرمِ موجود في الحياة الدنيا، وأعظمِ مخلوقٍ خلقه الله تعالى، حيث كان لهذا المخلوق الاهتمام البالغ من قبل خالقه وذلك من جوانب عدة بل لا تحصى تلك الآثار، فهل يمكننا أنْ نُدركَ أسرارَ خلق الإنسان وما رُكِّبَ فيه من الأعضاء التي يدل ظاهرها على عِظَمِ خالقها دون الولوج في حقائقها وأسرارها التي لا تستطيع العقول المحدودة أنْ تحيط بها، ولكن يكفي كل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]، فقد شمل حُسْن التقويم كل أعضاء الإنسان المادية والمعنوية الخفية التي حار في معرفة كنهها العلماء والمفكرون والفلاسفة، فصاروا يجولون ببحوثهم العلمية والفلسفية عن معرفة العقل والتفكير والضمير والحب والبغض ومعنى هذه المفاهيم والعلاقة المترابطة فيما بين هذه المنظومة الإلهية التي لا تقف عند حد، فخلية واحدة من الخلايا تحتاج إلى ما لا يوصف من الإمكانيات البشرية لعمل مثلها أو إيجاد بديلها، إضافة إلى العجز المطلق للإنسان في ذلك، فكل هذا وذاك أوجب على الإنسان أنْ يتفكر في خلقه ويتأمل فيه لعله يصل إلى عظمة الخالق فيتوجه إليه معترفاً بالفقر والحاجة، وهذه هي الحقيقة التي أكد عليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

---

(١) سورة التين: الآية ٤

ٱلْحَمِيدُ ﴾ [١] فالإنسان لا يصل إلى هذه الدرجة الرفيعة -الاعتراف بالفقر لله تعالى- إلا بعد التأمل والتفكر في آثار صنع الله تعالى ومنها خلق الإنسان وتكوينه، فتراه تعالى يصف لنا هذا المعنى بدقة متناهية ليرى الإنسان ذلك ويتأمل فيه ويؤمن به ولا يغفل عنه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [٣] وقد اتخذ الله تعالى أسلوب ضرب الأمثلة للناس ليكون المعنى أكثر تجلياً للفكر الإنساني، وليتمكن الإنسان من تكوين صورة مادية أقرب إلى واقعه ليتعرَّف على حقيقة ما عن قُرْبٍ.

إذن فالله تعالى بعد أنْ خلق الإنسان بهذه الهيئة التي تدل على التكريم، أراد منه أنْ يتأمل في ذلك ليتفكر في المسؤولية الموجهة إليه من قبل الله تعالى والتي تعرف بـ(التكاليف الشرعية)، فالإنسان هو المحور الأساس في هذه المعادلة، معادلة الخلق والخليقة، وإليه سخر الله تعالى هذه الموجودات،

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٥

(٢) سورة الحج: الآية ٥

(٣) سورة الروم: الآية ٥٤

وبالتالي أمامه مسؤولية كبيرة يجب عليه أنْ يؤديها على أحسن وجه، ولكي يُقَدِّر الإنسان هذه المسؤولية ويعرف واجبه تجاهها كان من الواجب على الخالق أنْ يبين له الأسس التي يعتمد عليها للوصول إلى الغاية الحقيقية، فهذه نقطة جوهرية مهمة وهي معرفة من الغاية من وجوده وخلقه، ولأجل معرفة ذلك نحتاج إلى شيء من التفصيل فيه لتكون لنا مقدمة لبيان رسالة السيد الشهيد الصدر في ذلك ودوره الريادي فيها والمجالات التي عمل من أجل تحقيقها.

وعلى أساس هذا كانت الدراسات متواصلة فيما يتعلق بالإنسان ووجوده وإيجاد النظام الكامل الذي يضمن له السعادة في الحياة الدنيا وأداء رسالته، لذا فإنَّ كل مذهبٍ يرى أنه يستطيع تحقيق ذلك، فصاروا يضعون النظريات تلو النظريات من أجل هدفهم هذا،وتحقيقه في المجتمع، ولكنَّ – حقيقة– أغلب هذه النظريات قد فشلت في ذلك إنْ لم تكن كلها، لأنها اعتمدت القانون الذي وضعه الإنسان ذو القابلية المحدودة والرغبات المتفاوتة هو مصدر التشريع فقط، فكانت النتيجة ما نراه من الويلات الكبرى للإنسان والإنسانية في كل بقعة من الأرض.

ولكن على عكس ذلك فإنَّ النظام الإسلامي قد تكفَّل نظاماً كاملاً يحقق السعادة للإنسان في الدارين الدنيا والآخرة لو تم تطبيقه كما أمر الله تعالى، وبيَّن ذلك في فقرات الشريعة المقدسة، والتي كان أهم شيء لديها هو الإنسان وكيفية المحافظة على فطرته الإنسانية السليمة دون تلوُّثها. ونحاول

في الصفحات المتواضعة أنْ نوضِّح ذلك جلياً من خلال التأمل في نظرات أحد مفكري المسلمين، وهو المفكر الفيلسوف السيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه) حيث كان له دورٌ بارزٌ في بيان ذلك وفي شتى مجالات العلم والمعرفة.

فحاولت أنْ أبين في هذا البحث بعض الملامح الأساسية التي يجب أنْ تتوفر في الإنسان والمجتمع الداعي إلى بناءِ دولةٍ تتحقق فيها أعلى درجات العدالة والسعادة الاجتماعية، وهذا الموضوع مهم جداً ويجب أنْ يُدرس ولكن للإحاطة بكل مفاصله يحتاج إلى بحثٍ عميقٍ ودقيقٍ من أصحاب الاختصاص ولا أدعي أنا منهم، ولكنها محاولة انطلقت فيها من خلال قراءةٍ إشراقةٍ من فكرِ الشهيد الصدر وأرجو أنْ توفِّي جزء من ذلك.

وسوف نحاول أنْ نعرِّجَ في هذا البحث على تلك الأفكار من خلال محاور ثلاثة وخاتمة بعد مقدمةٍ وتمهيدٍ، حيث ستكون أبواب البحث كما يأتي:

- مقدمة.
- تمهيد.
- المحور الأول: الغاية من خلق الإنسان.
- المحور الثاني: الدور الرسالي للإنسان في المجتمع (الاستخلاف).
- المحور الثالث: الإنسان وبناء الدولة.
- خاتمة.

المحور الأول: الغاية من خلق الإنسان.

إنَّ هذا الموضوع أو العنوان من الموضوعات والعناوين المهمة والشائعة بين العلماء والفلاسفة والتي كثر الحديث فيها، حيث معرفة الغاية الحقيقية لخلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا لهذه المدة الزمنية المحدودة والمحاطة بالآلام والمشقات من ظلمٍ وأذىً وانتهاكٍ الحقوق والاعتداءات في مقابل بعض اللذات البسيطة.

فلو أردنا أو حاولنا أنْ نستقرأ مؤلفات السيد الشهيد الصدر[1] لرأينا في ذلك السمة البارزة لمؤلفاته ﷺ في أنَّ أغلبها تتجه نحو التطبيق والعمل دون الكتابة والنظرية، فهو يحاول الخوض في كل موضوعٍ أو مشكلةٍ أو مسألةٍ علميةٍ للوصول إلى الفكرة الأسمى والقيام بتطبيقها عملياً أو بيان الطرق الكفيلة لتذليل الصعوبات التي تواجهها وهذا أمر واضح بأدنى تأمل في مؤلفاته، بل بسيرته العملية ﷺ.

فالاهتمام من قبل الله تعالى بالإنسان أمرٌ بديهي وقد أشار تعالى إلى ذلك في عدة من الآيات المباركة، وقد بينت التفاسير القرآنية هذه المسألة وأثرها، ونحاول أنْ نستعرض في هذا الجانب ما ذكره السيد الشهيد "محمد باقر الحكيم" ﷺ في كتابه "المجتمع الإنساني في القرآن الكريم" حول هذه المفاهيم، حيث يقول في عنوان "الإنسان محور الحياة" وهو يتحدث عن

(١) لنا مشروع بحث بعنوان "نظرة وتأمل في مؤلفات الشهيد محمد باقر الصدر" لعلنا نُوَفَّق إنْ شاء الله تعالى من الانتهاء منه.

الخلافة في الأرض والأبعاد التي تتضمنها هذه الخلافة حيث يقسم ذلك إلى أبعاد أربعة: ((البعد الأول: ما ذكره القرآن الكريم من أنَّ الله تعالى جعل الإنسان خليفته على الأرض، وبذلك أمتاز الإنسان على بقية المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [١] وحينما تساءلت الملائكة عن سبب جعل الإنسان خليفة وهو الذي يصدر منه الفساد وسفك الدماء، وهم يسبحون الله ويقدسونه: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [٢]، أجابهم سبحانه وتعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣] ثم عرض سبحانه وتعالى مبرراً عملياً لهذا الامتياز وحق آدم عليه السلام بالخلافة دونهم حيث ميَّزه بـ(العلم) وذلك بتعليمه الأسماء كلها، البعد الثاني: الموقف المتميز للإنسان، وهو بعد تفضيل الإنسان وتكريمه على كثير من المخلوقات وهو ما يفهم من أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام والذي يعبِّر عن الخضوع والاعتراف بهذه الحقيقة الإلهية والموقع المتميز له بالخلافة لله تعالى على الأرض قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٤] وكذلك ما ورد في تكريم الله تبارك وتعالى

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠

(٣) سورة البقرة: الآية ٣٠

(٤) سورة البقرة: الآية ٣٤

للإنسان على كثيرٍ ممن خلق وتفضيله عليهم تفضيلاً، وفي هذا إشـــارة إلى الموقع المتميز له على مَنْ حوله في الأرض، بل والكون أجمع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [١]، فإنَّ القرآن لم يذكر مثل هذا الوصف (كرمه) و(كرمنا) بصيغة التفضيل لأي مخلوقٍ في هذا الكون عدا الإنـــسان، البعـــد الثالث: الذي خص الله به الإنسان هو حمل الأمانة دون المخلوقات جميعاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [٢]، وقـــد خـــص الله ســـبحانه الجبال بالذكر دون غيرها من الموجودات لما في مظهرها -مما يراه الإنسان- من الضخامة ومع كل ذلك لم تتمكن من حمل هذه الأمانة الإلهية، وكـــان الإنسان مؤهلاً لكل ذلك دون السماوات والأرض والجبال، البعد الرابع: هو إنَّ الله تبارك وتعالى سخَّر بقية الموجودات للإنسان وجعلـــه قـــادراً عـــلى التصرف فيها كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٣]، وكذلك قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٢

(٣) سورة الجاثية: الايتان ١٢ - ١٣

ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [1] وغيرها من الآيات، ويمكن اعتبار هذا التسخير والقدرة شُعبة من شعب الخلافة وبُعداً آخراً فيها والذي يعني إعطاء الإنسان الإمكانيات والقدرات التي يحقق بها التمكن من الأرض والتي منها قدرته على تسخير الموجودات فيها والتي يمثل شيئاً من الامتداد للقدرة الإلهية في التصرف في الأرض والكون بالإرادة والاختيار والعقل والعناية الربانية، فالإنسان بما وهبة الله تعالى من (عقل) أصبح قادراً على تصور الأشياء في المستقبل بالتركيب بين المفردات الحسية ومن خلال إرادته أصبح قادراً على السعي لإيجاد هذه الصورة في المستقبل)). [2]

من هذه الكلمات تتجلى لنا الصورة الكاملة عن مكانة الإنسان وأهميته ودوره الكبير في البناء الاجتماعي والتغيير فيه نحو الإصلاح أو الإفساد.

فعلى أساس ذلك نرى أنَّ المفكر الكبير السيد الشهيد الصدر ﷺ كان جُلُّ اهتمامه بالإنسان حيث يمثل القاعدة الأساسية لإصلاحِ أيِّ مجتمعٍ وإنشاءِ أيِّ فكرةٍ، بغض النظر عن مستواه ومكانته وإمكاناته، فينبغي أنْ لم نبيِّن للإنسان حقيقة نفسه التي تكمن بين جنبيه وما تخفيه من كنوز المعرفة والقوة الخارقة التي تستطيع أنْ تتجاوز حدود الملائكة وتتفضل عليها، حيث بعد

---

(١) سورة إبراهيم : الآيتان ٣٢ - ٣٣

(٢) المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص ١٩-٢٣

بيان ذلك نتحول إلى بيان الغاية من كل هذه القوة والطاقة، فـإنَّ المـشكلة الأساس للباحثين – بعضهم- هو التحدث عن النظريات الفكرية والفلسفية للإصلاح وتهذيب النفس والمجتمع من حيث النظرية فقط ولا نرى لـذلك تطبيقاً مطلقاً وحتى من حيث أنفسهم، فمثلاً يتحدث صـاحب النظريـة أو المدرسة الأخلاقية أو الفلسفية في موضوع يريد به الصلاح والإصلاح وهو أول الفاقدين لتلك الإمكانية العملية، فيتحدث عن الإصـلاح الاجتماعـي والقضاء على التمييز بين الطبقات الاجتماعية وهو أوَّل مَنْ لا يرضى بأنْ يُقْرَن بغيره، بل يريد أنْ يكون هو المُشَرِّع فقط ولا يُحاسَب أبداً، وهذا ما رأيناه في بعض الفلسفات الغربية التي تَدَّعي كُلٌّ منها أنها هي الحل الأمثل لمـشاكل الإنسان والسبب الرئيس في ذلك أنَّ صاحب القرار أو التشريع هو الإنسـان حيث النقص وعدم الكمال من كل الجهات فيجعل الناس وما يحيط بهـم مختبره العملي لأفكاره ومقترحاته، فإنْ كان من الطبقة الاجتماعية العالية فإنَّ همه الأول والأكبر في نظرياته هو المحافظة على هذه المكانة العالية التـي يملكها هو وأقرانه بصورة مباشرة أو غير مباشرة سـواء أعلـن عنهـا أم لا، ولكنها بالنتيجة نراها تصبُّ في خدمة نفسه، وإنْ كان من طبقةٍ اجتماعيةٍ دانيةٍ فتراه يطلق النظريات بعد النظريات التي تنادي بحقوق الفقراء والمظلـومين ورفعهم إلى الطبقة العالية وتحقيق حاجاتهم ورغباتهم دون اللجوء إلى الحل الذي يقضي على ذلك الفقر، بل يريد إبدال طبقة من النـاس بطبقـة أنـاس آخرين، وهذا هو السبب الأساس في المذاهب المادية الغربية التي لم تحقق

السعادة لمجتمعاتها ولن تحقق ذلك، وإنَّ عدم إمكان تطبيق تلك النظرية بكل دقائقها لأنها نابعةٌ من نفسٍ تريد لنفسها أولاً ثم للآخرين ... ولكنَّ النظام الإسلامي المُشَرَّع من قبل مَنْ لا حاجة له ولا فقر ولا لذة ولا نقص نراه يمكنه تحقيق السعادة المتكاملة لو تم تطبيق فقرات نظامه وهو الشريعة الإسلامية.

من هذه المنطلقات كانت الرؤية الثاقبة للسيد الشهيد الصدر ﷺ والانطلاقة نحو مسألة التعريف والعلاج والعمل، وللتأكيد على ما بيناه نحاول أنْ نستتبع تلك الإشراقات التي يؤكد فيها على دور الإنسان في إصلاح نفسه وأهمية الإنسان في التطور والوصول نحو نجاحه وتحقيق سعادته، يقول ﷺ في إحدى إشراقاته الاجتماعية: ((إنَّ مشكلة العالم التي تملأ فكر الإنسانية اليوم، وتمس واقعها بالصميم، هي مشكلة النظام الاجتماعي التي تتلخص في إعطاء أصدقِ إجابةٍ عن السؤال الآتي: ما هو النظام الذي يصلح للإنسانية وتسعد به في حياتها الاجتماعية ؟

ومن الطبيعي أنْ تحتل هذه المشكلة مقامها الخطير، وأنْ تكون في تعقيدها وتنوع ألوان الاجتهاد في عملها مصدراً للخطر على الإنسانية ذاتها. لأنَّ النظامَ داخلٌ في حساب الحياة الإنسانية، ومؤثر في كيانها الاجتماعي بالصميم. وهذه المشكلة عميقة الجذور في الأغوار البعيدة من تأريخ البشرية، وقد واجهها الإنسان منذ نشأت في واقعه الحياة الاجتماعية، وانبثقت الإنسانية الجماعية تتمثل في عدةِ أفرادٍ تجمعهم علاقات وروابط مشتركة،

فإنَّ هذه العلاقات في حاجة – بطبيعة الحال– إلى توجيهٍ وتنظيمٍ شاملٍ، وعلى مدى انسجام هذا التنظيم مع الواقع الإنساني ومصالحه يتوقف استقرار المجتمع وسعادته.

وقد دفعت هذه المشكلة بالإنسانية في ميادينها الفكرية والسياسية إلى خوض جهادٍ طويلٍ وكفاحٍ حافلٍ بمختلف ألوان الصراع، وبشتى مذاهب العقل البشري، التي ترمي إلى إقامة الصرح الاجتماعي وهندسته، ورسم خططه ووضع ركائزه. وكان جهاداً مرهقاً يضج بالمآسي والمظالم، ويزخر بالضحكات والدموع، وتقترن فيه السعادة بالشقاء. كل ذلك لما كان يتمثل في تلك الألوان الاجتماعية من مظاهر الشذوذ والانحراف عن الوضع الاجتماعي الصحيح، ولو لا ومضات شعت في لحظاتٍ من تأريخ هذا الكوكب لكان المجتمع الإنساني يعيش في مأساةٍ مستمرةٍ وسبحٍ دائمٍ في الأمواج الزاخرة)).[1]

فهذه من الحقائق التي لا يشوبها شك لأنَّ الإنسانية مرَّت بمراحل مأساوية أدت إلى الضياع الكامل للإنسان ومكانته وقيمته الاجتماعية حتى حَوَّلته بعض الأنظمة إلى أداة تتصرف فيه ما تشاء في تحقيق رغباتها، وما الحروب والدمار الذي أصاب البشرية في القرن الأخير إلا شاهداً حياً على ذلك بالرغم من تقدم العلوم المادية والتكنولوجيا العالمية، ولكنها لم تحقق إلا شهوة القوة والاستيلاء والصراع والبقاء دون الغير، لأنها لم تعالج

---

(١) المدرسة الإسلامية ص ١١-١٢

الانحرافات النفسية التي سببتها الشهوات المادية البحتة، بل راحت تقوي هذه الرغبات لتصل إلى أقصى درجات الطغيان في سحق كل ما يخالفها، والشواهد على ذلك كثيرة جداً، فمن عالمنا الإسلامي ما رأيناه من تسلط القوى الاستعمارية على البلدان الإسلامية وثرواتها وطاقاتها البشرية لتذيقها ألم الحرمان والذل والهوان لتنعمَ هي بلذةِ الاستيلاءِ والقهر، وإذا ما فكرتْ تلك القوى يوماً بتركِ هذه البلدان لأهلِها فإنها تزرعُ فيها المشاكل السرمدية التي لا تحل إلا بالرجوع إليهم لتكون النتيجة واحدة وهو التحكم بمصير الإنسان في هذه الشعوب، وأبسط مثالٍ على ذلك ما في بلداننا العربية بعد تقسيمها إلى دول وجعلها طُعْمَةً لهم ما نراه من المشاكل الكبيرة في حدود كل بلدٍ مع آخر فلا يخلو بلدٌ من نزاعٍ مع البلد المجاور من معرفة الحدود الحقيقية لكل منهما والواقع يشهد بذلك، أما إذا الشعب أراد يوماً أنْ يُقنعَ المستعمر بالخروج من بلده تراه يجعل مكانه مَنْ يدير شؤونه ومصالحه، حتى وصل الحال إلى ذلك البناء من الطواغيت والحكام الذين يتحكَّمون بالمقدرات الإنسانية لشعوبهم وما يجب على تلك الشعوب من الطاعة العمياء لحكامهم -مولى المستعمر-، فكل ذلك لم يحدث سُدىً بل وُفْقَ نظرياتٍ وأنظمةٍ اجتماعيةٍ وضعها لهم علماؤهم ومفكروهم الذين يؤمنون بمبدأ الصراع والبقاء للأقوى والذي لا علاقة له بأي نظام إنساني، وهذا ما يريد السيد الشهيد الصدر ﷺ من بيانه والقضاء عليه في الكلمات التي مضت، فيقول معقباً على أسباب ذلك الفشل: ((إنَّ النظام الذي ينشؤه الإنسان

الاجتماعي، ويؤمن بصلاحه وكفاءته، لا يمكن أنْ يكون جديراً بتربية هـذا الإنسان، وتصعيده في المجال الإنساني إلى آفاق أرحب، لأنَّ النظام الـذي يضعه الإنسان الاجتماعي يعكس دائماً واقع الإنسان الذي صنعه ودرجتـه الروحية والنفسية، فإذا كان المجتمع يتمتع بدرجةٍ منخفضةٍ من قـوةِ الإرادة وصلابتها مثلاً لم يكن ميسوراً له أنْ يربِّي إرادته وينمِّيها بإيجاد نظام اجتماعي صارم يغذي الإرادة ويزيد من صلابتها .... فنحن لا نترقب الـصلابة مـن المجتمع الذائب وإنْ أدرك أضرار هذا الذوبان ومضاعفاته، ولا نأمـل مـن المجتمع الذي تستعبده شهوة الخمرة أنْ يُحرِّرَ بإرادته مهما أحسَّ بـشرور الخمرة وآثارها... وهذا هو السبب الذي جعل الحضارات البـشرية التـي صنعها الإنسان تعجز عادة عن وضع نظام يقاوم في الإنسان عبوديته لشهوته ويرتفع به إلى مستوى إنسانيٍّ أعلى [1] حتى لقد أخفقت الولايات المتحدة –

(١) نرى أنَّ السيد ﷺ يؤكد على إيجاد الحل الأمثل والدواء النافع الذي يقضي عـلى كـل الأمراض التي قامت بتلويث الفطرة الإنسانية وإخراجها من صفائها ونورها، فيصف الداء بوصفٍ دقيقٍ ليشخص بذلك الأسباب فيكون قادراً على المواجهة الحقيقيـة للعـلاج، حيث يُرْجِع لهذه النفس اطمئنانها بالمبادئ الإنسانية القيمة التي تحافظ على جوهرهـا وقدسيتها فترجع إلى ربها راضيةً مرضيةً في الدنيا قبل الآخرة وذلك باطمئنانها بالحـل الأمثل والنظام الأكمل الذي له القابلية على تحقيق سعادتها فترتفع تلك النفس آناً بعد آنٍ بمستواها الإنساني فتصل إلى الحقيقة التي وصفها أمير المـؤمنين عـلي عليه السلام بقولـه: (المؤمن الخير منه مأمول، والشر منه مأمون) فيكون بذلك مـصدراً للخـير والعطـاء اللامحدود وغير المتناهي، بل يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾

وهي أعظم تعبير عن أضخم الحضارات التي صنعها الإنسان – في وضع قانون تحريم الخمرة موضع التنفيذ لأنَّ من التناقض أنْ نترقب من المجتمع الذي استسلم لشهوة الخمرة وعبوديتها، أنْ يسنَّ القوانين التي ترتفع به من الحضيض الذي اختاره لنفس. بينما نجد أنَّ النظام الاجتماعي الإسلامي الذي جاء به الوحي، قد استطاع بطريقته الخاصة في تربية الإنسانية ورفعها إلى أعلى أنْ يحرِّم الخمرة وغيرها من الشهوات الشريرة، ويخلق في الإنسان الإرادة الواعية الصلبة)).[1]

قد يعترض أحدٌ فيقول: إنَّ هذا الأمر مبالغٌ فيه من قدرة النظام الإسلامي على تحقيق السعادة للإنسان دون سواه من الأنظمة، وهذه شبهة كبيرة يَدَّعيها مَنْ يَدَّعي وهي قائمة على أساس أمور عدة، منها:

أولاً: عدم وضوح المعنى الحقيقي لمفهوم السعادة لديهم، هل المراد منها السعادة المادية أم الروحية أم هما معاً.

ثانياً: عدم الإيمان بوجود خالق عظيم ورسالات سماوية وضعت فقرات قوانينها من الغني الحميد الذي لا يحتاج أحداً.

ثالثاً: الإيمان الساذج بالحرية المطلقة للإنسان، وأنَّ الحرية هي جزء لا ينفك عن وجود الإنسان وتحقيق رغباته.... وغيرها من الأسباب.

فهذه هي أعلى مستويات الإنسانية التي يبحث عن تحقيقها الشهيد الصدر ﷺ وإنْ كلف تحقيق هذا العلاج قوافل وقوافل من الشهداء وهذا ما كان ..

(١) المصدر السابق ص ٢٢-٢٣

ولكن نقول لأمثال هؤلاء لو كان ما تَدَّعون به صحيحاً بيِّنوا لنا أي بقعة في هذه المعمورة استطاعت أنْ تحقق سعادتها إيماناً بنظرياتكم، فلا تخلو بقعة إلا والتفاوت فيها كبير جداً بين النظرية والتطبيق.[1]

---

(١) ولنأخذ شاهداً واحداً على ذلك ومن قمة الهرم لواضعي المذاهب الغربية التي تدعي الصلاح والإصلاح وتحقيق السعادة، فقد ورد في "موسوعة الفلسفة" لعبد الرحمن بدوي عند ترجمة الفيلسوف "فرانسيس بيكون" لمراحل حياته قوله: اتجه إلى دراسة القانون على أساس أنَّ مهنة المحاماة كانت من المهن المدرَّة للربح الوفير، وحصل على إجازة في القانون في وقتٍ قصيرٍ جداً ومارس المحاماة وبرز فيها وفي سن الثالثة والعشرين أصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني، وحالما أوشك أنْ يصير مدعياً عاماً عُرف أنه هاجم سياسة الضرائب التي تفرضها الملكة، هاجمها في البرلمان فعدلت الملكة عما انتوته من تعينه مدعياً عاماً، فأثَّرت هذه الحادثة في نفس بيكون وهو الطموح إلى أعلى المناصب، وجعلته يدرك أنَّ الإخلاص في الحق والنزاهة في التعبير لا يروجان عند أصحاب السلطة، وأدرك أنَّ المجد في الدنيا لا ينال إلا بالنفاق والخداع والغدر والخيانة! ولما كان الطموح إلى المجد أقوى الدوافع لديه، فقد اتَّخذ هذا المسلك الخسيس لتحقيق أطماعه، وذلك أنَّه كان صديقاً حميماً "لإيرل اسكس" وسعى هذا بقوةٍ ومثابرةٍ لتوفير منصبٍ رفيعٍ لبيكون، لكن الملكة رفضت تعيينه في المنصب الذي كان يسعى له فيه صديقه، وعوَّضه بأنْ منحه إحدى ضياعه. لكن حدث بعد سنواتٍ قليلة أنْ فقد "إيرل اسكس" حظوته لدى الملكة "اليصابت" واتهم "اسكس" بالخيانة، لقد استدعت الملكة بيكون وطلبت منه إعداد صحيفة الاتهام ضد "اسكس" فحاول "بيكون" في أول الأمر أنْ يعقد مصالحة بين الملكة و"اسكس" لكن لم تفلح محاولته، وأطاع الملكة فيما أمرته به، بل اجتهد في تلمس الحجج وكَيْل التهم لصديقه وولي نعمته، ولما قدم "اسكس" للمحاكمة تولى "بيكون" نفسه مهمة المدعي العام، وكان أعرف الناس

إنَّ فشل ذلك يعود لأنَّ الهدفَ قائمٌ على كيفية تحقيق الرغبة للإنسان، وليس قائماً على فكرة كيف نحقق إنساناً أولاً تتجذر فيه المعاني الإنسانية المتكاملة، وهذا ما نراه واضحاً وجلياً في الفلسفة الإسلامية التي تستمد معرفتها من الوحي الإلهي والتي تجذَّرَتْ أقصى درجاتها بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1] فكانت التقوى هي المقياس الحقيقي والخط الفاصل للوصول إلى درجات التكريم وتسخير الموجودات، وليست التقوى سوى تهذيب النفس والارتقاء بها إلى أعلى درجات الإنسانية، وإذا وصلت النفس إلى هذه الدرجات فلا تبالي بعد ذلك بمَ تريد وتحتاج، فكل ما تريده وتحتاجه يكون ضمن هذا الإطار القائم على التقوى. ولذا فالمفكر الإسلامي الشهيد الصدر ﷺ يؤكد على هذه الحقيقة الضائعة، فيقول في كيفية علاج المشكلة الإنسانية للسمو والترقّي: ((والعالم أمامه سبيلان إلى دفع الخطر وإقامة دعائم المجتمع المستقر أحدهما: أنْ يُبَدَّل الإنسان غير الإنسان، أو تخلق فيه طبيعة جديدة تجعله يُضَحِّي بمصالحه الخاصة، ومكاسب حياته

بخبايا صديقه، فحكم على "إيرل اسكس" بالإعدام ونفذ الحكم ....)) هذا مثال يبين أنَّ العلم إنْ لم يهذب النفس ويخرجها من تَحَكُّم شهواتها ولذاتها إلى التنزه عن ذلك فإنه وبالٌ على صاحبه، لأنه يزيد من حب الذات الذي يؤدي بدوره إلى الأنانية والانتقام من أجل تحقيق الرغبات النفسية.

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣

المادية المحدودة في سبيل المجتمع ومصالحه، مع إيمانه بأنَّه لا قِيَمَ إلا قِيَمَ تلك المصالح المادية، ولا مكاسب إلا مكاسب هذه الحياة المحدودة. وهذا إنما يتم إذا انتزع من صميم طبيعته حب الذات وأبدل بحب الجماعة، فيولد الإنسان وهو لا يحب ذاته إلا باعتبار كونه جزءً من المجتمع، ولا يلتذ لسعادته ومصالحه إلا بما أنها تمثل جانباً من السعادة العامة ومصلحة المجموع، فإنَّ غريزة حب الجماعة تكون ضامنة حينئذ للسعي وراء مصالحها وتحقيق متطلباتها بطريقة ميكانيكية وأسلوب آلي. والسبيل الآخر الذي يمكن للعالم سلوكه لدرء الخطر عن حاضر الإنسانية ومستقبلها هو أنْ تُطَوِّر المفهوم المادي للإنسان عن الحياة، وبتطويره تتطور طبيعياً أهدافها ومقاييسها وتتحقق المعجزة حينئذ من أيسر طريق. والسبيل الأول هو الذي يحلم أقطاب الشيوعيين [1] بتحقيقه للإنسانية في مستقبلها، ويعدون العالم بأنهم سوف ينشؤونها إنشاءً جديداً يجعلها تتحرك من أيسر طريق .....)). [1]

---

(١) نرى أنَّ السيد ﷺ يعبر عن تلك الأطروحات التي يتقدم بها الشيوعيون لمن يعتقد بأقوالهم أنها مجرد أحلام وسوف تزول وتتلاشى بعد قليل، وليس للحلم واقعاً وإنْ كان الذي يحلم يتصور أنَّ هذا هو حقيقة وواقع، وبالفعل فقد تحقق للعالم كله حقيقة ذلك من كونه حلماً على الرغم من إطلاق السيد الشهيد هذه الكلمات في أيام كانت الشيوعية تحاول مواصلة انتصاراتها المزعومة بإقناع الجيل أنَّ هذه هي المبادىء التي تتحقق بها سعادة الإنسانية وتصديق بعض من المسلمين لذلك، ولكنه ﷺ بإيمانٍ راسخٍ ويقين يعبِّر عن كل ذلك بأنه مجرد حلم وكأنه ينظر بنور الله تعالى إلى الغيب الذي ينتظر تلك الأحلام، بل كان ينظر حقيقة بذلك النور، فأخذ يفنِّد تلك الأقاويل ببيانٍ واضحٍ عن حقيقة

فإنه ﷺ يعتبر أنَّ حب الذات هو الأساس في المشكلة الاجتماعية والإنسانية للفرد الذي يقوم على التفسير المادي المحدود للحياة والذي أشاد بناءه الغرب، حيث أنَّ كل فرد في المجتمع إذا آمن بأنَّ ميدانه الوحيد في هذا الوجود العظيم هو حياته المادية الخاصة، وآمن بحريته في التصرف بهذه الحياة واستثمارها، وأنه لا يمكنه أنْ يكسب من هذه الحياة غاية إلا اللذة التي توفرها له المادة، وأضاف إلى هذه العقائد المادية حب الذات فسوف يسلك السبيل الذي سلكه الرإسماليون ونصل إلى حالة الطبقية في المجتمع الإنساني، فيبقى القوي قوياً بل يزداد قوة، ويبقى الضعيف ضعيفاً بل يزداد ضعفاً وذلاً وهواناً حتى يقرَّ بالعبودية لهم .. وهذا ما أراد الإسلام القضاء عليه واستطاع بفترةٍ زمنيةٍ محدودةٍ من القضاء عليها بعد ما كان قائماً على أوجِهِ

النظام الإسلامي المجهول لدى هؤلاء بل حتى لدى المثقفين من المسلمين، فكانت تلك الصولات العلمية في إصدار مؤلفاته القيمة مثل "فلسفتنا" و "اقتصادنا" وغيرها التي أحدثت ثورة فكرية في العالم، ولذا ترى أنَّ الدوائر الاستعمارية حاولت بكل ما أوتيت من مكرٍ وخديعة الخلاص من هذا الفكر وهذه الثورة التي لها القدرة على إخماد كل صوتٍ دون صوت الإسلام، فكان ما كان فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) المصدر السابق ص ٦٣-٦٤

لولا السياسات وحب الذات لبعضٍ حيث حرفت المسيرة الإسلامية الإصلاحية عن منهاجها.[١]

وبعد أنْ يستطرد الشهيد الصدر ﷺ في بيان المذاهب الغربية التي لم تجر لهذا الإنسان إلا الويلات والدمار، يحاول ﷺ أنْ ينشر النظرية الإسلامية وتطبيقها بديلاً عن تلك النظريات الناقصة من مجالات ونواحٍ شتى والتي ثبت فشلها، فيرى أنَّ الإيمان بالمبادئ الإسلامية هي الأساس في المحافظة على الإنسان وتكريمه، كل ذلك لا لكونه مسلماً ويؤمن بالإسلام فقط، بل بكونه باحثاً عن الحقيقة التي تنفع الإنسانية وترفع من مستواها نحو إنسانيةٍ

---

(١) وهذه حقيقة يجب على المسلمين أنْ يعترفوا بها، فإنَّ تأريخهم يشهد بذلك، فلا داعي لأيِّ تبريراتٍ وتأويلاتٍ من بعض الكُتّاب والمفكرين في محاولة التلاعب بالألفاظ والتأويل لها دفاعاً عن أشخاصٍ، بل يجب أنْ نقرأ التأريخ كما هو على حقيقته، فأيُّ انحرافٍ وصلت إليه الأمة الإسلامية عند ابتعادها عن الخط الإلهي المرسوم لها، فكان عاقبة تلك الدولة التي أسستها مبادئ وقوانين السماء أنْ تكون أُلعوبة بعد أيامٍ معدودات بأيدي أبي سفيان ومعاوية ويزيد ومروان؟! حتى سجل التأريخ تلك أحداث هذه المصائب بكلمات من الأسف والويل !! فماذا نريد أن نفسر كلمة أبي سفيان لقومه عندما آل الأمر إليهم: (تلاقفوها يا بني أمية كتلاقف الصبيان للكرة) وهل هذه المواقف وغيرها الكثيرة إلا هدماً للمبادئ الإسلامية كمبدأ النص في الخلافة، وحتى مبدأ الشورى لمَنْ يقول به. فإنَّ عدم تهذيب هذه الذات فإنها ولو آمنت لحينٍ فإنَّ إيمانها مستودع لا مستقر فله وقت ويزول فيعود لما كان يؤمن به، فعلينا أنْ نعتبر بهذه الدروس التأريخية للمسلمين لا تبريرها من أجل تقديس رجالٍ وإن أدى إلى ذلك إلى تهديم أمة.

أعلى، وكذلك إمكانية تطبيق ذلك على أرض الواقع، وخصوصاً بعد الفشل المتواصل لتلك النظريات التي وضعهـــا هؤلاء الأشخاص.

فيقول ﷺ بنفسٍ مطمئنةٍ بما تؤمن: ((فلابد إذن من معين آخر -غـــير المفاهيم المادية عن الكون- يستقي منه النظام الاجتماعي، ولا بد من وعيٍ سياسيٍّ صحيحٍ ينبثق عن مفاهيم حقيقة الحياة، ويتبنـــى القـــضية الإنـــسانية الكبرى، ويسعى إلى تحقيقها على قاعدة تلك المفاهيم، ويـــدرس مـــسائل العالم من هذه الزاوية، وعند اكتمال هذا الوعي السياسي في العالم واكتساحه لكل وعي سياسي آخر، وغزوه لكل مفهوم للحياة لا يندمج بقاعدته الرئيسية .. يمكن أنْ يدخل العالم في حياةٍ جديدةٍ، مشرقة بالنور عامرة بالـــسعادة. إنَّ هذا الوعي السياسي العميق هو رسالة الإسلام الحقيقية في العالم، وأنَّ هذه الرسالة المنقذة لهي رسالة الإسلام الخالدة التي استمدت نظامها الاجتماعي -المختلف عن كل ما عرضناه من أنظمة- من قاعدة فكرية جديدة للحيـــاة والكون [1] وقد أَوْجَدَ الإسلام بتلك القاعدة الفكرية النظرة الصحيحة للإنسان

(١) إني أعتقد إنَّ هذه الكلمات يجب أنْ تكتب من ذهب لكل أمةٍ تبحث عن التكريم الإلهي لها، ويجب أنْ تحفر قلوب المربّين والقادة والمصلحين والسياسيين لتكون لهم مناراً في قيادة الآخرين ولا يصبو عنها أبداً إنْ كانوا صادقين في دعوتهم فإنها حجة علـــيهم، ولا يمكن لمجموعة ألفاظٍ أنْ تحيط بحقيقة وسر هذه الكلمات التي تنفـــذ في القلـــب لأول قراءة لها، وتقدح في العقل الفكر والتأمل، فكل ذلك إنما لصدق الدعوة بأعلى درجـــات الصدق، وما الإصرار والقتل دونها إلا مصداق حقيقي لهذه الكلمات. وإنَّ أمة فيها مثـــل هذه العقول والقلوب لن تهزم أبداً وتأريخ خط أهل البيت ﷺ قد أثبت ذلك، فرغم كل

إلى حياته، فجعله يؤمن بأنَّ حيـــاته منبثقة عن مبدء مطلق الكمال، وإنَّ إعداد الإنسان إلى عالم لا عناء ولا شقاء ونصب له مقياساً خلقياً جديداً في كـــل خطواته وأدواره وهو رضا الله تعالى، فليس كل ما تفرضه المصلحة الشخصية فهو جائز، وكل ما يؤدي إلى خسارة شخصية فهو محرم غير مستساغ، بـــل الهدف الذي رسمه الإسلام للإنسان في حياته هو الرضا الإلهي والمقيـــاس الخلقي الذي تُوزَنُ به جميع الأعمال إنما هو مقدار ما يحصل بها من هـــذا الهدف المقدس والإنسان المستقيم هو الإنسان الذي يحقق هذا الهـــدف، والشخصية الإسلامية الكاملة هي الشخصية التي سارت في شتى أشـــواطها على هدى هذا الهدف، وضوء هذا المقياس، وضمن إطاره العام وليس هذا التحويل في مفاهيم الإنسان الخلقية وموازينه وأغراضه .. يعني تغيير الطبيعة الإنسانية، وإنشاءها إنشاءً جديداً كما كانت تعني الفكرة الـــشيوعية. فحـــب الذات -أي حب الإنسان لذاته وتحقيق مشتهياتها الخاصـــة- طبيعـــي في الإنسان، ولا نعرف استقراءً في ميدان تجريبي، أوضح من استقراء الإنسانية في تأريخها الطويل، الذي يبرهن على ذاتية حب الذات. بل لو لم يكن حب الذات طبيعياً وذاتياً للإنسان لما اندفع الإنسان الأول قبل كل تكوينةٍ اجتماعيةٍ إلى تحقيق حاجاته، ودفع الأخطار عن ذاتـــه، والـــسعي وراء مـــشتهياته ..

الظروف القاسية جداً التي مرَّت عليهم وعلى شيعتهم فإنها لم تقهرهم وتقهر مبـــادءهم التي أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، فكان نتيجة ذلك الإيمان والمعتقد أنْ آتـــت تلـــك المبادئ أُكلها كل حينٍ بإذن ربها، علينا أنْ نتأمل ونتأمل !!

بالأساليب البدائية التي حفظ بها حياته في وجوده، وبالتالي خوض الحياة الاجتماعية والاندماج في علاقات مع آخرين، تحقيقاً لتلك الحاجات ودفعاً لتلك الأخطار، ولما كان حب الذات من هذا الموضع من طبيعة الإنسان، فأيُّ علاجٍ حاسمٍ للمشكلة الإنسانية ترى يجب أنْ يقوم على أساس الإيمان بهذه الحقيقة. وإذا قام على فكرة تطويرها أو التغلب عليها، فهو علاج مثالي لا ميدان له في واقع الحياة التي يعيشها الإنسان.

وأما رسالة الدين، فيقوم الدين هنا برسالته الكبرى التي لا يمكن أنْ يضطلع بأعبائها غيره أنْ تحقق أهدافها البنّاءة، وأغراضها الرشيدة إلا على أسسه وقواعده، فيربط بين المقياس الخلقي الذي يضعه للإنسان، وحب الذات المرتكز في نفسه.

وفي تعبير آخر: إنَّ الدين يوحِّد بين المقياس الفطري للعمل والحياة وحب الذات، والمقياس الذي ينبغي أنْ يقام للعمل والحياة ليضمن السعادة والرفاه والعدالة.

إنَّ المقياس الفطري يتطلب من الإنسان أنْ يقدِّمَ مصالحه الذاتية على المجتمع ومقومات التماسك فيه، والمقياس الذي ينبغي أنْ يحكم الفرد هو المقياس الذي تتعادل في حسابه المصالح كلها، وتتوازن في مفاهيمه الفردية والاجتماعية. فكيف يتم التوفيق بين المقياسين وتوحيد الميزانين، لتعود الطبيعة الإنسانية في الفرد عاملاً من عوامل الخير والسعادة للمجموع بعد أنْ كانت المأساة والنزعة التي تتفنن في الأنانية وأشكالها ؟

إنَّ التوفيق والتوحيد يحصل بعملية يضمنها الدين للبشرية التائهة، وتتخذ الآلية أسلوبين:

الأسلوب الأول: هو تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح، كمقدمة تمهيدية إلى حياةٍ أخرويةٍ يكسب الإنسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه، في سبيل تحصيل رضا الله. فالمقياس الخلقي يضمن المصلحة الشخصية، في نفس الوقت الذي يحقق فيه أهدافه الاجتماعية الكبرى. فالدين يأخذ بيد الإنسان إلى المشاركة في إقامة المجتمع السعيد والمحافظة على قضايا العدالة فيه التي تحقق رضا الله تعالى، لأنَّ ذلك يدخل في حساب ربحه الشخصي، ما دام كل عمل ونشاط في هذا الميدان يعوض عنه بأعظم العوض وأجله.

فمسألة المجتمع هي مسألة الفرد أيضاً في مفاهيم الدين عن الحياة وتفسيرها، ولا يمكن أنْ يحصل هذا الأسلوب من التوفيق في ظل فهم مادي للحياة، فإن الفهم المادي للحياة يجعل الإنسان بطبيعته لا ينظر إلا إلى ميدانه الحاضر وحياته المحدودة، على عكس التفسير الواقعي للحياة الذي يقدمه الإسلام، فإنه يوسِّع من ميدان الإنسان، ويفرض عليه نظرية أعمق إلى مصالحه ومنافعه ويجعل من الخسارة العاجلة ربحاً حقيقياً في هذه النظرة العميقة، ومن الأرباح العاجلة خسارة حقيقية في نهاية المطاف: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [1] ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

(١) سورة فصلت: الآية ٤٦

مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]، هذه بعض الصور الرائعة التي يقدمها الدين مثالاً على الأسلوب الأول الذي يتبعه للتوفيق بين المقياسين وتوحيد الميزانين فيربط بين الدوافع الذاتية وسبل الخير في الحياة، ويطور من مصلحة الفرد تطويراً يجعله يؤمن بأنَّ مصالحه الخاصة والمصالح الحقيقية العامة للإنسانية -التي يحددها الإسلام- مترابطتان.

وأما الأسلوب الثاني: الذي يتخذه الدين للتوفيق بين الدافع الذاتي للقيم أو المصالح الاجتماعية فهو التعهد بتربية أخلاقية خاصة، تعني لذية الإنسان روحياً، وتنمية العواطف الإنسانية والمشاعر الخلقية فيه، فإنَّ لطبيعة الإنسان -كما ألمعنا سابقاً- طاقات واستعدادات لميول متنوعة، بعضها ميول مادية تتفتح شهواتها بصورة طبيعية كشهوات الطعام والشراب الحسن، وبعضها ميول معنوية تتفتح وتنمو بالتربية والتعاهد .... والدين باعتباره يؤمن بقيادة معصومة مسددة من الله، فهو يوكل أمر الإنسانية وتنمية الميول المعنوية فيها إلى هذه القيادة وفروعها فتنشأ بسبب مجموعة من العواطف والمشاعر النبيلة ويصبح الإنسان يحب القيم الخلقية التي يربيه الدين على احترامها ويستبسل في سبيلها، فإنَّ القيم بسبب التربية الدينية تصبح محبوبة للإنسان.

فهذان هما الطريقان اللذان ينتج عنهما ربط المسألة الخُلُقية بالمسألة الخَلْقية، ويتلخص أحدهما في: إعطاء التفسير الواقعي لحياة أبدية لا لأجلِ أنْ يزهد الإنسان في هذه الحياة، ولا لأجل أنْ يخضع للظلم ويقر على غير العدل ...

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٠

بل لأجل ضبط الإنسان بالمقياس الخلقي الصحيح، الذي يمده ذلك التفسير بالضمان الكافي.

ويتلخص الآخر في: التربية الخلقية التي ينشأ عنها في نفس الإنسان مختلف المشاعر والعواطف، التي تضمن إجراء المقياس الخلقي بسوحي من الذات)).[1]

فهذا هو الفكر الإسلامي المتكامل لتهذيب الحبِّ الفطري للذات وتهذيبه نحو حُبِّ الآخرين، لا تطوير ذلك الحب إلى أعلى درجات التمرد والطغيان أو سحقه وسلبه لأدنى الحقوق والواجبات، فالفكرةُ دقيقةٌ ومهمةٌ جداً تحتاج إلى تأملٍ كبيرٍ لكي تُفهم الأبعاد والحقائق، وتتوجه النفس نحو الصلاح والإصلاح، وهذا بطبيعته لا يمكن أنْ يُحَقق بالكلمات النظرية فقط وكذا الشعارات بل لا بد من العمل الدؤوب الشاق للمحافظة على تلك الجوهرة النفيسة التي تحاط بالعديد من الأعداء والمتكالبين عليها، ولذا نرى أنَّ القرآن الكريم يصف ذلك الجهاد بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[2]، وقد ورد في تفسير (الكدح) أنه: السعي والعناء الذي يخلق أثراً على الجسم والروح، وقيل (الكدح) جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.[3]

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦-٧١

(٢) سورة الانشقاق: الآية ٦

(٣) تفسير الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ٢٠/٤٤

فالتأمل في ذلك يُعَرِّف الإنسان عظمة الهدف والغاية، ولذا يختم المفكر الشهيد الصدر ذلك بقوله: ((فالفهم المعنوي للحياة والتربية الخلقية للنفس في رسالة الإسلام هما السبيلان المجتمعان على معالجة السبب الأعمق للمأساة الإنسانية)).[1]

إذن لو أردنا أنْ نؤسس لدولةٍ كريمةٍ فعلينا أنْ نكون على يقينٍ أنَّ هذا البناء أساسه هو الإنسان الذي يفهم الغاية من هذا المشروع الكبير ودوره فيه، فما لم يتم العمل وفق هذا المستوى لا يمكن التقدم نحو بناء الدولة التي تتحقق فيها العدالة والاحترام للحقوق والواجبات، كل ذلك كان واضحاً في كلام الشهيد الصدر ﷺ عند معالجته للإنسان ومشاكله الاجتماعية، وإنَّ النظرية التي كان ينادي بها ويجتهد من أجلها لم تكن خاصة في المجتمع الإسلامي أو ما يحيط به، بل لكل فردٍ في مجتمع يصبو نحو التكامل والوصول إلى المستوى العالي للإنسانية، فمسألة حب الذات مسألة عامة تتعلق بالإنسان في أيِّ بقعةٍ كان فيها، وفي أيِّ زمان وُجِد فيه، ولأيِّ معتقدٍ ينتمي إليه، فأولى الخطوات لمعالجة أي مشكلة هو معرفة المشكلة ثم إيجاد العلاج النافع لها، فالمشكلة الأساس للوضع الاجتماعي هو حُبُّ كل فرد من أفراد المجتمع ذاته فقط، دون التفاعل مع الروح الجماعية حيث تذوب المصلحة الشخصية أمام المصلحة العامة.

---

(١) المدرسة الإسلامية ص٧١

وإنَّ السيد الشهيد الصدر ﷺ كان يؤمن إيماناً قاطعاً بأننا لا يمككنا أنْ نقيم الدولة المثالية (لا المثالية النظرية) ما لم نَقُم بصنع الإنسان المثالي[١] الذي هو محور القضية والوجود، وهو المخاطب في جميع القوانين والأنظمة، سواء السماوية أم الوضعية، فلو أننا أردنا أنْ نستقرأ جميع فقرات القوانين والأنظمة لرأينا أنها تبحث وتدعو إلى قضيةٍ واحدةٍ جوهريةٍ وهي الإنسان وكيفية المحافظة على حقوق وتحصينه من الاعتداء عليه بأيِّ شكلٍ من أشكال الاعتداء ومصادرة حقوقه.[٢]

---

(١) وأريدُ بمفهوم الإنسان المثالي، أي الذي يؤمن بالمبادئ الإنسانية التي لها دور في رفعه من المستوى الأدنى إلى أعلى المستويات التي فيها الخدمة الواضحة للبشرية، أي أنْ يكون كل إنسان مصدراً للعطاء اللامحدود وفقاً لما أودعه الله تعالى فيه، دون الوقوف عند حدٍّ معينٍ عند تحقيق حاجته أو الرضا بحلِّ مشكلته دون مشاكل الآخرين.

(٢) ويمكننا ملاحظة ذلك بالرجوع إلى القوانين والأنظمة وفقرات المنظمات الإنسانية والأمم المتحدة ومنظمة حقوق الإنسان التي وضعت للمحافظة على هذه الحقوق، فعلى سبيل المثال ورد في نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المادة (١): يولد كل أبناء البشر أحراراً وهم متساوون من حيث الكرامة والحقوق، والكل يملكون عقلاً ووجداناً، وعليهم أنْ يتعاملوا مع بعضهم البعض بروح الإخوة. المادة (٢أ) لكل إنسانٍ الحق في التمتع بكل الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان. المادة (٦) لكل أحد الحق في التمتع أمام القانون بالشخصية الحقوقية له في كل مكان باعتباره إنساناً. (حقوق الإنسان بين الإعلانين الإسلامي والعالمي / محمد علي التسخيري)

وهذه الحقيقة هي من أهم المشاكل والعقبات التي تَحُول دون تقدم الأمم ورفع مستواها على جميع الأصعدة، لذلك نرى أنَّ القرآن الكريم والسنة الشريفة أكدت كثيراً على هذه المشكلة وحاولت علاجها وإيجاد الحل الملائم لها والمناسب لكل وضع.

فنحن لا نريد أنْ نتعامل مع الشريعة المقدسة على أنها مجرد قوانين وأنظمة وضعها المشرِّعُ ويجب على الإنسان أنْ يقوم بتنفيذها، بل نريده أنْ يكون على قناعةٍ تامةٍ أنَّ علاج الأمراض النفسية والاجتماعية في هذه القوانين والتشريعات، وإنَّ سعادته تكمن في ذلك، وأنْ لا بديل لها أبداً، فإذا وصل الإنسان إلى هذه القناعة نراه يقوم بنفسه في البحث عن النظام والتشريع الإلهي ويأتيه ليعمل به طوعاً لا أنْ تكون بينهما هُوَّةٌ ساحقةٌ، ويُنْظَر إلى النظام وكأنه شبحٌ مخيفٌ يركض خلفه دائماً وهو يحاول أنْ يفلت من رقابته إذا كانت له أية فرصة، فتكون لنا عند ذلك رؤية جديدة ومشرقة للتشريعات التي نَضَّمها القرآن الكريم والسنة الشريفة، فمثلاً نتأمل في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [1] فنصل إلى فكرةِ حبِّ الله تعالى لعباده ووجوده المطلق بقرب عبده وهو معه أينما كان في حراسته، وفي عينه، لا يغفل عنه بألطافه، وحبه، وعنايته، والاستجابة إليه في كل آنٍ، دون اللجوء إلى التفكير المقابل لذلك بأنَّ الله رقيبٌ عليَّ في كل آنٍ ويجب أنْ أحذره دائماً ولا

(١) سورة المجادلة: الآية ٧

أتصرف بأيِّ تصرفٍ لأنه مُطَّلِعٌ عليَّ، فهناك بونٌ شاسعٌ بين التفكيرين والرؤيتين، وأعتقد أنَّ هذا هو عين ما أراده مولى المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: ((إلهي ما عبدْتُكَ طَمَعاً في جنتِكَ، ولا خَوْفاً من نارِكَ، بلْ وجدتُكَ أهلاً للعبادَةِ فعبدتُكَ)) وغير ذلك من الأحاديث الشريفة التي نراها قد أكدت على ذلك وحثت على أنْ يفكِّرَ الإنسانُ بنفسه فقط بل التجاوز إلى دائرة أوسع وبالتالي التجاوز عن حب الذات إلى حب الجماعة والانتقال من التفكير بالمصلحة الفردية الذاتية إلى المصلحة العامة للمجتمع، وما أسرار الفرائض من الحج والجهاد والصوم وصلاة الجماعة والخمس والزكاة والإحسان إلى الجار وغيرها إلا مصداق واقعي وحقيقي لهذه الفكرة، فكل إنسان له دور في صلاح المجتمع وفساده، حيث روي في الحديث الشريف: ((ألَا كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) فلا رهبانية في الإسلام، فالإسلام لا يدعو إلى تهذيب النفس من أجل النفس بل من أجل إصلاح نفوس الآخرين وتحقيق السعادة للجميع، أو على أقل تقديرٍ لأوسع فئة اجتماعية ..

لأجل هذه المفاهيم العظيمة الراقية نرى أنَّ السيد الصدر رحمه الله كان يهتم كثيراً في تصحيح الفكر عند الإنسان وعلى جميع المستويات وفي شتى المجالات الدينية والعلمية والفلسفية لكي لا يكون فكراً مستقبلاً فقط بل مُنتجاً، فلا يقف عند حدٍّ من الحدود، ولا يتقوقف في بقعة صغيرة، وحواسه لا تتحسس سوى ما يدور في هذه البقعة الصغيرة المحدودة ويتصور أنَّ مسؤوليته تقف عند هذا الحد فقط، بل عليه أنْ يمزِّق هذا الستار الذي بناه بين

نفسه والمجتمع إذا كان يؤمن بما مر من المفاهيم، وصوت الشريعة يصدح آناء الليل وأطراف النهار: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (١) ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (٢) ((ليسَ بمسلمٍ مَنْ لم يهتم بأمورِ المسلمين))، ((ليسَ بمؤمنٍ مَنْ باتَ شبعان وجارهُ جائعٌ))، فلا تتم المعرفة الحقيقية والغرض منها ما لم نخرج من واقع حب الذات إلى حب الآخرين والمجتمع، بل ما لم نخرج من المفهوم الضيق للعبادة والذي يريد أنْ يظهره لنا أعداء الدين من شياطين الإنس والجن من قولهم أنت تصلي فلا عليك بغيرك، أنت مؤمن فلا عليك بالآخرين وغيرها من الأمثلة التي تجعل من المؤمن إنساناً أنانياً يجرُّ المنفعة –إنْ نفعت– لنفسه ولا عليه بالآخرين، وقد تصدى لهذه الأفكار الخاطئة أيضاً المفكر الشهيد الصدر ﷺ التي تريد أنْ تحجم المفهوم الحقيقي الشامل للعبادات وهو بذلك يدعو إلى الفهم الحقيقي لدعوة الشريعة المقدسة، فنراه يقول حول المفهوم الشامل للعبادة: ((حين نلاحظ العبادات المختلفة في الإسلام نجد فيها عنصر الشمول لجوانب الحياة المتنوعة، فلم تختص العبادات بأشكالٍ معينةٍ من الشعائر، ولم تقتصر على الأعمال التي تجسد مظاهر التعظيم لله سبحانه وتعالى فقط، كالركوع والسجود والذكر والدعاء، بل امتدت إلى كل قطاعات النشاطِ الإنساني. فالجهادُ عبادةٌ وهو نشاطٌ اجتماعي، والزكاة عبادة وهي نشاط

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣

اجتماعي مالي، والخمس عبادة وهو نشاط اجتماعي مالي أيضاً، والصيام عبادة وهو نظام غذائي، والوضوء والغسل عبادتان وهما لونان من تنظيف الجسد. وهذا الشمول في العبادة يعبر عن اتجاه عام في التربية الإسلامية يستهدف أنْ يربطَ الإنسان في كل أعماله ونشاطاته بالله تعالى، ويحوِّلَ كل ما يقوم به من جهدٍ صالحٍ إلى عبادةٍ مهما كان حقله ونوعه، ومن أجل إيجاد الأساس الثابت لهذا الاتجاه وزعت العبادات الثابتة على الحقول المختلفة للنشاط الإنساني، تمهيداً إلى تمرين الإنسان على أنْ يسبغ روح العبادة على كل نشاطاته الصالحة، وروح المسجد على مكانِ عمله في المزرع أو المصنع أو المتجر أو المكتب، ما دام يعملِ عملاً صالحاً من أجل الله سبحانه وتعالى. وفي ذلك تختلف الشريعة الإسلامية عن اتجاهين دينيين آخرين، وهما أولاً: الاتجاه إلى الفصل بين العبادة والحياة، وثانياً: الاتجاه إلى حصر الحياة في إطار ضيق من العبادة كما يفعل المترهبون والمتصوفون .... والله سبحانه وتعالى لم يركز على أنْ يُعبد من أجل تكريس ذاته وهو الغني عن عباده، لكي يكتفي منهم بعبادة من هذا القبيل، ولم يُنَصِّب نفسه هدفاً وغايةً للمسيرة الإنسانية لكي يطأطئ الإنسان رأسه بين يديه في مجال عبادته وكفى، وإنما أراد بهذه العبادة أنْ يبني الإنسان الصالح القادر على أنْ يتجاوز ذاته ويساهم في المسيرة بدورٍ أكبر، ولا يتم التحقيق الأمثل لذلك إلا إذا امتدت روح العبادة تدريجاً إلى نشاطات الحياة الأخرى، لأنَّ امتدادها يعني امتداد الموضوعية في القصد والشعور الداخلي بالمسؤولية في التصرف، والقدرة

على تجاوز الذات وانسجام الإنسان مع إطاره الكوني الشامل مع الأزل والأبد اللذين يحيطان به. ومن هنا جاءت الشريعة ووزعت العبادات على مختلف حقول الحياة وحثت على الممارسة العبادية في كل تصرف صالح، وأفهمت الإنسان بأنَّ الفارق بين المسجد الذي هو بيت الله وبين بيت الإنسان ليس بنوعية البناء أو الشعار، وإنما استحق المسجد أنْ يكون بيت الله لأنه الساحة التي يمارس عليها الإنسان عملاً يتجاوز فيه ذاته ويقصد به هدفاً أكبر من منطق المنافع المادية المحدودة، وأنَّ هذه الساحة ينبغي أنْ تمتد وتشمل كل مسرح الحياة، وكل ساحة يعمل عليها الإنسان عملاً يتجاوز فيه ذاته ويقصد به ربه والناس أجمعين فهي تحمل روح المسجد)). [1]

فهذه هي روح العبادة الحقيقية التي يريدها الله تعالى من عباده، فليس للعبادة أمد محدود أو زمان معين، بل للعبادة امتداد مع وجود الإنسان في جهاده مع عدوه الأكبر وهو الشيطان بصورتيه الإنسية والجنية، ولو أننا تعمقنا في الفهم القرآني للتعاليم الإلهية لرأينا ذلك بكل ووضوح، فمثلاً نرى في غاية الصلاة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [2] فقد أخبر الله تعالى بأنَّ الصلاة لها دورٌ كبيرٌ على النفس وفي المجتمع وهو الإصلاح ونشر الخير والمعروف وهذا لا يكون بمجرد الركوع والسجود بل إنَّ مساحة الصلاة أوسع من ذلك بكثير ولا حد لها، وكذا الصوم قال تعالى:

---

(١) نظرة في العبادة ص ٤٨-٥١

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٥

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1] فالغاية من الصوم هو الوصول إلى درجة التقوى وهذه المنزلة لا يمكن الوصول إليها بمجرد الإمساك عن الطعام والشراب وغيرهما بل بالجهاد المتواصل وفي مراحله وساحاته ..

فهذه الكلمات يجب علينا أنْ نؤمن بأنها العلاج الأمثل والخطوة الأولى نحو الدولة المتكاملة التي تصبو إلى إقامة الخير والعدل في أوسع رقعتها، وهذا ما نراه ينطوي في بعض فقرات الأدعية المباركة ومنها دعاء الافتتاح: ((اللهمَّ إنا نرغبُ إليكَ في دولةٍ كريمةٍ تعزُّ بها الإسلامَ وأهلَهُ، وتذلُّ بها النفاقَ وأهلَهُ، وتجعلُنا فيها من الدعاةِ إلى طاعتِكَ، والقادةِ إلى سبيلِكَ)) فهذه الرغبة يجب أنْ تكون حقيقيةً وذلك بتهيأة الأسباب لها، وأول هذه الأسباب هو الإنسان الذي سيقوم بهذا التغيير والانقلاب على الواقع الفاسد، إضافة إلى التسديد والعناية الإلهية.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٣

المحور الثاني: الدور الرسالي للإنسان في المجتمع (الاستخلاف).

بعد أنْ بيَّنا في المحور الأول بعض الملامح المتعلقة بالغاية من خلق الإنسان، نحاول أنْ نبين هنا دور الإنسان في تكوين المجتمع أو رسالته في المجتمع كيف تكونت وكيف يؤديها لو وصل إلى الدرجة التي يكون مؤهلاً فيها لأداء رسالة كبيرة، وهذا أمرٌ مهم ينبغي أنْ نتعرف عليه لنكون على استعدادٍ لكل مسؤوليةٍ تواجهنا في إيصال الرسالة للمجتمع المتكامل أو الذي يصبو نحو كماله.

وهذا المفهوم أيضاً قد تعرض له السيد الشهيد الصدر ﷺ حديثه عن الدور الرسالي للإنسان في هذه الحياة الدنيا، فقال ضمن أطروحته التي أطلق عليها (الاستخلاف) هذه الأطروحة استنبطها من القراءة الدقيقة الثاقبة للقرآن الكريم وهو يستعرض المراحل التأريخية للبشرية التي مَرَّت بها وتنوع هذه المراحل، وتنوع صور التعامل لكل مرحلة والتأمل في المقدمات والنتائج، حيث أنَّ كل ذلك جوهره مشتركات معينة، فلو استطعنا أنْ نتعرف على هذه المشتركات لاستطعنا بالتالي أنْ نضع قانوناً أو سبيلاً ثابتاً في التعامل مع أيِّ قضيةٍ إنسانيةٍ يتعرض لها الإنسان من أيِّ فئةٍ من فئاتها أو المجتمع ككل، فيجب دراسة تلك الثوابت دراسة عميقة لنبث في النفس روح التغيير والإصلاح لا ما يراد بثه في المجتمعات من اليأس وانعدام الأمل كلياً ليستسلم الناس لحكامهم الطغاة الذين سلبوا منهم الإرادة بكل صورها، فيتحول عندها الإنسان والمجتمع طرفاً في العداء والعداوة أمام كل مصلحٍ

يريد إنقاذهم من الوضع الذي هم فيه نحو صلاحهم وحياتهم الحقيقية التي يجب أنْ يكونوا عليها، وهذا الأمر نراه جلياً في القرآن الكريم، حيث يطرح الله تعالى أمثلة كثيرة للمجتمعات التي استسلمت للبؤس والذل والهوان فيبعث الله تعالى لهم الأنبياء (القادة) لإنقاذهم وإحيائهم وبعثهم من جديد، حيث لا يبالي هؤلاء القادة بعدد مَنْ يحيونهم لأنهم يؤمنون بأعظم قاعدة إنسانية تقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (١) لذلك نرى المصلحين -أنبياءً أو قادة- لا يهمهم كثرة عدد المفسدين، بل يفكرون بكيفية تنفيذ وإنجاح الفكرة الصالحة التي يؤمنون بها، والقرآن الكريم قد ذكر لنا جهاد الأنبياء ومعاناتهم مع الناس من أجل صلاح المجتمع، وهو بذلك لا يريد أنْ يذكر قصص يتجلى فيها الجانب التأريخي، أو الأسلوب الأدبي القائم على الخيال الواسع، بل يريد من ذكرها (القصة) أنْ تكون تذكرةً لسننٍ تأريخيةٍ كثيرةٍ، وفي مراحل زمنية متباعدة، وبين أقوام من بيئات وثقافات ومعتقدات متعددة، ولكن العامل المشترك بين كل هؤلاء هو الإنسان، فالإنسان قبل آلاف السنين هو الإنسان اليوم وبعد آلاف السنين حيث النفس الواحدة من الخالق الواحد وما تنطوي عليه من اللذات والشهوات والعقل والصراع القائم بينها، فقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢

دَسَّىٰهَا ﴾ [١] فهذه النفس التي تعرض لذكرها القرآن الكريم ليست خاصة بالإنسان الذي كان القرآن عليه حجة عند نزوله، بل يشمل كل نفسٍ خلقت على هذه الأرض من أول لحظة من عمر الدنيا إلى آخرها حيث الخالق الواحد الذي لا يطرؤ عليه التغيير والفساد .... فمثلاً إنَّ النفس الإنسانية التي رُكِّبَت في نبي الله إبراهيم عليه السلام هي مثلها في عدو الله نمرود، وإنَّ النفس في نبي الله موسى عليه السلام هي مثلها في عدو الله فرعون، وإنَّ النفس في نبي الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي مثلها في أبي لهب وأبي سفيان وأمثالهما، ولكن الذي حَوَّل هذه النفس التي ولدت على الفطرة السليمة هو الإنسان نفسه فبعد أنْ عرفه الله تعالى حقيقة النفس أخذ يختار إليها طريقاً دون آخر، فتكون يوماً من أولياء الله ويوماً آخر من أعداء الله وذلك على مقدار تزكيتها أو تدنيسها حيث الفلاح والنجاح والوصول إلى درجات العلى في الأولى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، والخسران المبين والوصول إلى الدرك الأسفل من الهوان في الثانية ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾.

إذن لو أردنا أنْ ندرس هاتين الآيتين دراسة معمقة ودقيقة لوصلنا إلى سر نجاح كل إنسان حتى يتحول إلى مَلَكٍ عظيمٍ، كما قال تعالى: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [٢] أو لا يدانيه مَلَكٌ كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٧ - ١٠

(٢) سورة يوسف: الآية ٣١

فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [١] فالإنسان هو الذي يختار لنفسه طرق الوصول إلى أعلى الدرجات إلا في درجات محدودة مخصوصة -الأنبياء والأوصياء- أو أنْ يختار لنفسه أنْ يكون فرعوناً أو نمروداً، فهذه الإشراقات القرآنية تبعث في النفس روح الأمل العظيم نحو الوصول والنجاح والترقي، وهي أيضاً تردٌّ على الفهم الخاطئ الذي يقول إنَّ الإنسان مجبور نحو أعماله وإنها قد قُدِّرَتْ له ومختارة له وليس هو الذي اختار تقديرها، حيث إنَّ الفاعل للتزكية والتدنيس هو الإنسان المشار إليه في الآية بالاسم الموصول (مَنْ).

فالقصص القرآني بالتالي لا يُراد به ذِكْرُ قصةٍ وكفى، بل العبرة والاتِّعاض والتذكرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] فهذه القصص تهدف إلى هذه الأمور الأربعة وهي:

١ - التصديق. ٢ - التفصيل. ٣ - الهداية. ٤ - الرحمة.

ولكن لا يحصل ذلك إلا لمَن اشْتُرِطَ فيه الإيمان المطلق بأنَّ المصلحين هم أعلى نفساً من غيرهم، وليس لهم غاية سوى إنقاذ الناس من المزالق والانحرافات، وأنهم يتحملون كل الشدائد والمحن والمصائب من أجل

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٨ - ٩

(٢) سورة يوسف: الآية ١١١

غيـــرهم فقط لا من أجل أنفسهم لأنَّ أنفسهم وصلت إلى ما وصلت [١] ومن أعظم الأمثلة ما ذكره القرآن الكريم للأنبياء مع قومهم، ومنها قصة نبـــي الله نوح عليه السلام حيث يقول وهو يصف لنا الصور الرائعـــة للإنســـانية المتكاملـــة للمصلحين في دعوة قومهم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [٢]، فهذه هي العزيمة والإصرار والإيمان والتفاني الذي يجب أنْ يتحلى به القادة والمصلحون في سبيل الخير والصلاح وبناء الإنسان والمجتمع.

بعد كل ما تقدم نرى أنَّ الشهيد الصدر رحمه الله حاول إيجاد النظام الأمثل للإنسان والمجتمع المتكاملَين، حيث نراه يقول عند تحليله لعناصر المجتمع من الزاوية القرآنية: ((هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصـــها مـــن العبـــارة

(١) والشواهد التأريخية على ذلك كثيرة جداً، وما يوم الطف إلا ملحمة من ملاحم الإنسانية حيث يصل الحال أنْ يقتل الحسين نفسه وأهله من أجل إصلاح غيره وهو سيد شـــباب أهل الجنة والسيد المقدَّم في قومه، ولكن روح الإصلاح والصلاح لا تسكن أبداً أمـــام الشر والفساد دون أنْ تنهض ضده، وعلينا أنْ ندرس الملحمة الحسينية من هذا الجانـــب لنثبت عالميتها وشموليتها لكل البشرية، وليست هي مسألة تأريخية من مراحل التـــأريخ الإسلامي الذي مضى عليه أربعة عشر قرناً، بل هي مرحلة من مراحل التأريخ الإنـــساني التي تتجدد كل حينٍ أينما وُجِدَ الخير والشر والصلاح والفساد.

(٢) سورة نوح: الآيات ٥ - ١٠

القرآنية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1] أولاً: الإنسان. ثانياً: الأرض. ثالثاً: العلاقة. العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض، بالطبيعة، وتربط من ناحية أخرى الإنسان بأخيه الإنسان، وهذه العلاقة المعنوية التي سمّاها القرآن الكريم بالاستخلاف .... ونحن حينما نلاحظ المجتمعات البشرية نجد أنَّ المجتمعات البشرية جميعاً تشترك بالعنصر الأول والعنصر الثاني. فلا يوجد مجتمع بدون إنسان يعيش مع أخيه الإنسان، ولا يوجد مجتمع بدون أرض أو طبيعة يمارس الإنسان عليها دوره الاجتماعي. وفي هذين العنصرين تتفق المجتمعات التاريخية والبشرية.

وأما العنصر الثالث وهو العلاقة، ففي كل مجتمعٍ علاقة كما ذكرنا، ولكن المجتمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة وفي كيفية صياغة هذه العلاقة، فالعنصر الثالث هو العنصر المرن والمتحرك من عناصر المجتمع، وكل مجتمع يبني هذه العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان من جانب وبالطبيعة بالجانب الآخر، ولكن الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية تعتبر هذا الطرف الرابع مقوماً من المقومات الأساسية للعلاقة الاجتماعية على الرغم من أنه خارج إطار المجتمع، هذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية ذات الأبعاد الأربعة هي التي طرحها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠

فالاستخلاف هو العلاقة الاجتماعية من زاوية نظر القرآن الكريم، والاستخلاف لدى التحليل نجد أنه ذو أربعة أطراف؛ لأنَّ الاستخلاف يفترض مستخلِفاً أيضاً. فلا بد من مُستخلِفٍ ومُستخلَفٍ عليه ومستخلَف. فهناك إضافة إلى الإنسان وأخيه الإنسان والطبيعة يوجد طرف رابع في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف وهو المستخلِف؛ إذ لا أستخلاف بدون مستخلِف، فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى، والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان، أي الإنسانية ككل الجماعة البشرية، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومن عليها.

فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات أطراف أربعة، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون، بوجهة نظرٍ قائلة بأنه لا سيِّد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة إلا الله سبحانه وتعالى، وأنَّ دور الإنسان في ممارسة حياته إنما هو دور الاستخلاف والاستئمان، وأي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوكٍ وإنما هي علاقةُ أمينٍ على أمانةٍ استؤمن عليها، وأيُّ علاقةٍ تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان – مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك- فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجب هذه الخلافة، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية.

هذه الصيغة الاجتماعية الرباعية الأطراف التي صاغها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف، ترتبط بوجهة النظر المعينة للحياة والكون، في مقابلها

توجد للعلاقة الاجتماعية صيغة ثلاثية الأطراف، صيغة تربط بين الإنسان والإنسان والطبيعة، ولكنها تقطع صلة هذه الأطراف مع الطرف الرابع، تجرُّد تركيب العلاقة الاجتماعية عن البعد الرابع، عن الله سبحانه وتعالى، وبهذا تتحول نظرة كل جزء إلى الجزء الآخر داخل هذا التركيب وداخل هذه الصيغة)).[1]

إنَّ هذه الكلمات تؤكد على الفكر الثاقب والرؤية الصائبة للحوادث والحقائق التي يجب أنْ تكون على أساسها العلاقات الصحيحة التي يقوم ببنائها الإنسان نحو التكامل الاجتماعي.

وأخيراً أحاول أنْ أستقرئ الصورة الواضحة للفكر الإنساني الذي كان همه الإنسان وخدمة الإنسان وإسعاد الإنسان والوصول به إلى أعلى مستويات الإنسانية لو أراد الإنسان أنْ يغيِّرَ الحال الذي هو عليه، فلو أنَّ الإنسان لا يقوم بهذا التغيير والتحويل ٱبتداء من ذاته فإنه لا يمكن إيجاد المجتمع المتكامل الإنسانية، وهذا هو جوهر الدعاء الذي ندعو به: ((اللهُمَّ غَيِّرْ سوءَ حالِنا بحسنِ حالِك)) فالداعي بهذا الدعاء عليه أنْ يعرف أولاً ثقافة الدعاء ومفهوم الدعاء ومَنْ أدعوه لهذا الأمر العظيم، حيث إنَّ الحال السيء الذي عليه الإنسان إلى ما هو أفضل منه إنما اختياره بيد الإنسان لو أراد ذلك مع توفيق الله تعالى وتسديده لذلك، وهذا هو وعده لكل من يريد نصرته تعالى

---

(١) المدرسة القرآنية ص ١١٨

فإنَّ نتيجة ذلك الفوز والصلاح وتثبيت الأقدام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾. (١)

إذن فالإنسان هو الأساس وهو الأصل كما بينا، وبدون إصلاح الإنسان فانه لا يمكن الوصول إلى الصلاح الحقيقي الذي له الأثر البالغ في النجاح والوصول إلى درجة الاستخلاف التي يجب أنْ نفهمها ولا نحيد عنها، ولذا يقول ﷺ حول المفهوم الحقيقي لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (٢) ((هذه الآية واضحة جداً في أنَّ المحتوى الداخلي للإنسان هو القاعدة والأساس للبناء العلوي للحركة التأريخية، لأنَّ الآية الكريمة تتحدث عن تغيرين؛ أحدهما تغيير القوم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ ﴾ يعني تغير أوضاع القوم، إذن التغيير الأساس هو تغيير ما بأنفس القوم، ومن الواضح إنَّ تغيير ما بأنفس القوم بحيث يكون المحتوى الداخلي للقوم وكأمة وكشجرة مباركة تؤتي أُكلها كل حين متغيراً، وإلا تغيير الفرد أو الفردين أو الأفراد الثلاثة لا يشكل الأساس لتغيير ما بالقوم، فالمحتوى النفسي والداخلي للأمة هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغييرات في البناء العلوي في الحركة التأريخية كلها، والإسلام والقرآن يؤمن بأنَّ العمليتين يجب أنْ تسيرا جنباً إلى جنب، فصنع الإنسان لبنائه الداخلي يجب أنْ يسير جنباً إلى جنب مع

---

(١) سورة محمد: الآية ٧

(٢) سورة الرعد: الآية ١١

البناء الخارجي، ولا يمكن أنْ يُفترض انفكاك البناء الداخلي عن البناء الخارجي إلا إذا بقي البناء الخارجي مهزوزاً متداعياً)).[١]

فهذه الكلمات يجب أنْ نتأمل بها لو أردنا أنْ نقوم بالتغيير الشامل للواقع الفاسد وإصلاحه، وكل ذلك لا يمكن أنْ يؤدي دوره من غير التعاون الاجتماعي ليكون الأثر والإصلاح كبيراً.

---

(١) المصدر السابق ص١٢٠

المحور الثالث: الإنسان وبناء الدولة.

إذا استطعنا من خلال ما تقوم من بناء الإنسان البناء المتكامل وفق الفطرة التي فُطِرَ عليها يمكننا القيام ببناء الدولة التي يكون همُّها الأول والأخير تحقيق أكبر جزء من أجزاء السعادة والعدالة لمواطنيها، حيث إننا نؤمن بأنَّ السعادة والعدالة المطلقة لا يمكن أنْ تتحقق لأيِّ مجتمع أو إنسانٍ في هذه الحياة الدنيا لأنَّ أصل الدنيا قائم على الابتلاءات والعطاء والحرمان والتفاوت في القابليات والاستعداد من إنسان لآخر، وهي بالتالي دار ابتلاء وامتحان كما جعلها الله تعالى وبيَّن ذلك القرآن الكريم وكذا الأحاديث الشريفة، وما نراه واقعاً في الحياة الدنيا.

إذن فالإنسان هو المكوِّنُ الأساسُ للدولة وبنائها نحو الصلاح والسعادة أو العكس الفساد والشقاوة، وبما أنَّ مجتمعاتنا الإسلامية تؤمن بالأطروحة الإسلامية على أنها أكمل الإطروحات السماوية وذلك لأنَّ المشرِّعَ لها هو الله تعالى خالق الإنسان والأعرف بما ينفعه ويضره، لذا يجب علينا أنْ نكون على يقينٍ من أنَّ الإنسان المسلم لو قام بتطبيق القوانين الإسلامية كما أُمِرَ بها لوصل إلى أعلى درجات السعادة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾[1] ولو رجعنا إلى الأحاديث الشريفة والوصايا للمعصومين عليهم السلام لرأينا ذلك جلياً حيث بناء الإنسان وبالتالي بناء الدولة التي تحقق النظام

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٦

الأصلح، ومن أهم ما ورد في ذلك عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر حين ولاه مصر، فإنه يتضمن أغلب -إنْ لم يكن كل- ما يحتاجه الحاكم والمحكوم، أي الراعي والرعية، وبالمصطلح الحديث القائد أو السياسي والمواطن، فيجب علينا دراسته دراسة دقيقة لنخرج برؤى واضحة ودقيقة ..

فالإنسان كما ظهر هو محور القضية، والسيد الشهيد الصدر قد أكد على ذلك وعلى جميع مستويات شرائح المجتمع لأنهم وبالتالي كلهم يُكَوِّنون المجتمع الذي نريد منه أنْ يحقق أقصى درجات السعادة والعدالة للناس، ولأجل الوصول إلى ذلك يجب علينا -الإنسان- أولاً أنْ نفهم الغاية من خلقنا ورسالتنا كما بينا سابقاً، ثم بعد ذلك نُرَبِّي أنفسنا لأجل تحقيق هذا الهدف، وبعدها أو معها إيجاد أفضل السبل لتحقيق ذلك، وأظن بل أجزم أنَّ السيد الشهيد الصدر قدس سره قد قام بكل هذه الخطوات عملياً وعلمياً ليثبت للجميع أنَّ النظرية الإسلامية ليست نظرية جوفاء أو طوبائية، بل لها مساحة واسعة على أرض الواقع، وكذلك إنَّ المسلم ليس إنساناً ضعيفاً أو فاشلاً بل له القدرة الكاملة على إثبات وتحقيق ذلك الفكر السماوي في إيجاد الدولة الإسلامية حيث تتحقق فيها تلك المباديء.[1]

---

(١) وأعتقد أنَّ خيرَ مثالٍ واضحٍ على ذلك هو قيام الثورة الإسلامية في إيران التي استطاعت بالنظام الإسلامي والقائد والمواطن الإسلامي الداعي للقضية والمؤمن بها، أنْ تقلب نظاماً دموياً حديدياً وتقهره بسلاح المبدأ النابع من الوعي والإيمان، حيث أصبحت هذه الجمهورية في مدة عقودٍ قليلةٍ جداً أنْ تُقدم مثالاً عظيماً للإسلام من خلال التقدم الواضح على جميع المستويات لتكون اليوم من دول العالم التي يُشار إليها بالبنان رغم

ولأجل تحقيق ذلك نرى أنَّ السيد الصدر قد خاطب كل فئات المجتمع ليبين لهم رسالتهم التي يجب أنْ يؤمنوا بها، فمثلاً في رسالة الفقهية العملية (الفتاوى الواضحة) لم يبدأ بها بذكر الفتاوى الفقهية ابتداء -كما هو الحال لدى الفقهاء- بل قدم لها بمقدمة مهمة تبين للإنسان دوره تجاه خالقه ورسوله والرسالة، ليبثَّ فيه روح الوعي الإسلامي حيث التسلح بسلاح العلم والثقافة العامة وما لذلك من دورٍ كبيرٍ في إصلاح الإنسان مطلقاً، سواء كان حاكماً أم محكوماً، أي بالتالي يكون كل فرد مؤهلاً لنشر السلام والخير في المجتمع.[1]

كل التحديات والصعوبات والاعتداءات، فيحسب لها العالم الغربي القائم على استعباد الأمم والشعوب ألف حسابٍ ويكيد لها بكل طريقة، ولكنني أعتقد بل أجزم على أنَّ على الشعوب الإسلامية جميعاً أن تفتخر بذلك وتشجع عليه لتقيم الحكم الإسلامي في جميع بلدانهم، والذي هو أعظم نظام لتحقيق الحقوق والسعادة الإنسانية، ولكن للأسف أنَّ أغلب هذه الشعوب قد استسلمت لحكامها استسلام الضرير لعصاه، بل أشد !!

(١) وهذه المقدمة التي قدمها السيد الشهيد الصدر ﷺ في رسالته الفقهية تعد من المقدمات المهمة جداً ويجب على المسلم أن يعرفها ويؤمن بها، وخصوصاً الشباب لأنهم مقبلون على العطاء حيث المجتمع ينتظر عطاءهم. وقد طبعت هذه المقدمة مستقلة بعنوان (المرسل والرسول والرسالة) ولعلنا نوفق لتقديم دراسة عنها، بل الأحرى بالمعاهد العلمية أنْ تجعلها منهجاً تربوياً من مناهجها وخصوصاً المرحلة التي تسبق المرحلة الجامعية لما فيها من الفوائد الجمة، ولما لهذه المرحلة من الخطورة البالغة على الشخصية الإسلامية التي فقدت مبادئها بسبب النكبات المتلاحقة على الشعوب الإسلامية، لذا يجب على المؤسسات التعليمية والتربوية والإصلاحية الاهتمام بذلك.

ونحاول بسطور عدة أنْ نقتبس من هذه المقدمة البليغة ذات المعنى والمغزى الدقيق الذي يريد أنْ يوصله للإنسان من وراء ذلك، لأنه ﷺ يؤمن بأنَّ المجتمع بلا إنسانٍ واعٍ فهو كالأرض التي فيها من الأشجار اليابسة التي لا تقدِّم نفعاً مرجواً، بل فقدت الحياة وستفقد يوماً حتى هذا الوجود الظاهري الذي قد يجعل لها منظراً معيناً ..

لقد أراد ﷺ أنْ يبث روح الحياة في النفوس والعقول التي تريد أنْ تستسلم لعدوها بأدنى سببٍ وبأيِّ فرصة، ليقول لهم من خلال تلك الروح الجديدة إنَّ الإنسان أقوى الموجودات ويمكنه أنْ يُذلل الصعاب له إنْ لم نقل إنه يستطيع أنْ يذلل كل شيء لأنَّ الله تعالى معه، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. (١)

أراد ﷺ أنْ يُهَذِّبَ الفكر والنفس فيقول ما فائدة وأثر الصلاة وأنت لا تعرف مَنْ تصلي له وتتوجه إليه ولا تعرف معنى الصلاة الحقيقية وأهدافها وآثارها على المصلي، أي لا نريد أنْ نجعل من العبادات أعمالاً صورية فقط لا روح فيها. بل نريدها -الصلاة- روحاً يبثُّ الحياة في كُلِّ مفصلٍ استسلم للموت أو يحاول الاستسلام.

لأجل ذلك يقول: ((فلكي يُكَوِّن الإنسان هدفاً لا بد أنْ يكون حراً في التصرف، ليتاح له أنْ يتصرف وفقاً لما تنشأ في نفسه من أهداف، فالترابط بين المواقف العملية والأهداف هو القانون الذي ينظِّم ظاهرة الاختيار لدى

---

(١) سورة الجاثية : الآية ١٣

الإنسان. كما أنَّ الهدف بدوره لا يتواجد بصورةٍ عشوائيةٍ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ يحدد أهدافه وفقاً لما تتطلبه مصلحته وذاته من حاجاتٍ، وهذه الحاجات تحددها البيئة والظروف الموضوعية التي تحيط بالإنسان، غير أنَّ هذه الظروف الموضوعية لا تحرِّك الإنسان مباشرة كما تحرك العاصفة أوراق الشجر، لأنَّ هذا يُعَطِّل دوره ككائنٍ هادفٍ، فلا بد للظروف الموضوعية إذن من تحريك الإنسان عن طريق الإثارة والإيحاء بتبنِّي أهداف معينة، هذه الإثارة ترتبط بإدراك الإنسان للمصلحة في موقفٍ عمليٍّ معينٍ، ولكن ليست كل مصلحة تحقق إثارة للفرد، وإنما تحققها تلك المصالح التي يدرك الفرد أنها مصالح له بالذات، وذلك أنَّ المصالح على قسمين؛ فهناك مصالح على خطٍّ قصيرٍ تعود بالنفع غالباً على الفرد الهادف العامل نفسه، ومصالح على خطٍّ طويلٍ تعود بالنفع على الجماعة، وكثيراً ما تتعارض مصالح الفرد ومصالح الجماعة، وهكذا نلاحظ من ناحيةٍ أنَّ الإنسان غالباً لا يتحرك من أجل المصلحة لقِيَمِها الإيجابية، بل بقدر ما تحقق له من نفعٍ خاصٍّ، ونلاحظ من ناحيةٍ أخرى أنَّ خلق الظروف الموضوعية لضمان تحرك الإنسان وفق مصالح الجماعة شرطٌ ضروريٌّ لاستقراء الحياة ونجاحها على الخط الطويل، وعلى هذا الأساس واجه الإنسان تناقضاً بين ما تفرضه سُنَّة الحياة واستقرارها من سلوكٍ موضوعيٍّ واهتمامٍ بمصالح الجماعة وما تدعو إليه نوازع الفرد واهتمامه بشخصه من سلوكٍ ذاتيٍّ واهتمامٍ بالمنافع الآنية الشخصية)).[1]

---

(١) الفتاوى الواضحة ص ٦٤

إني أتمنى على كل إنسانٍ يبحث عن الفكر الذي يوضِّح له الهدف والغاية لوجوده أنْ يتأمل في هذه الكلمات الصادقة التي تؤثر في كل إنسانٍ واعٍ بغض النظر عن معتقداته، بل أجزم أنَّ هذه الكلمات تدخل الفكر والقلب السليم بلا أدنى معارضةٍ، لأنها تنبع من فكرٍ سليمٍ من الشوائبِ، قائمٍ على المعتقدات الواضحة الخالية من الشك والشبهات، مستدلٍّ بالأدلة العقلية التي لا ريب فيها، إضافة للصدق والإخلاص في الدعوة وأثرها في نفس المتكلم والمتلقي ..

بهذه الكلمات يفهم الإنسان الذي يصبو إلى ممارسة دوره ورسالته في الحياة أنْ يجعل منها دستوراً قائماً على الوعي والثقافة، خصوصاً للذي يريد أنْ تكون رسالته على أعلى المستويات في المجتمع من تكوينِ الدولة والمؤسسات التي تضمن للإنسان الخير ((اللهمَّ إنّا نرغبُ إليكَ في دولةٍ كريمةٍ))، فالدولة الكريمة لا تقام بالصلاة الصورية والصوم الشكلي والمعتقد المتزلزل، بل بهذه الكلمات التي تقدمت، ولقد رأينا أمثلة واضحة لهذا التطبيق في مجتمعنا حيث أستطاع الشهيد الصدر ﷺ أنْ يولدهم ولادة جديدة.. ولادة الفكر والمبدأ والعقيدة .. ولادة الروح الجديدة المشرقة .. بعد أنْ ولدهم آباؤهم أجساداً، ومَنْ أراد معرفة ذلك فليراجع سيرة بعضٍ من الشهداء والمظلومين الذين لا يمكن للقلم واللسان أنْ يوصفهم ويصف مواقفهم الخالدة ودماءهم الزكية التي هدَّت عرش طاغوت العراق وأعوانه، فكانت عاقبتهم الشهادة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] فهم حقيقة أحياء ولن يموتوا لأن الأبدان تموت وتتلاشى، والروح تعلو وتتعالى، وما الحياة الجديدة التي يعيشها المؤمنون اليوم في العراق إلا نفحة من تلك الروح التي آمنت بأنَّ الحق يعلو ولا يُعلى عليه، وإنَّ المبادئ لن تموت، بل هي كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾. [2]

ونراه يقول ﷺ في إشراقة أخرى ليبين عظمة النظام الذي يجب أنْ نؤمن به وهو الإسلام: ((وللرسالة الإسلامية خصائصها التي تميزها عن سائر رسالات السماء وسماتها التي جعلت منها حدثاً فريداً في التأريخ. وفي ما يلي نذكر عدداً من الخصائص والسمات بإيجاز:

أولاً: إنَّ هذه الرسالة ظلت سليمة ضمن النص القرآني دون أنْ تتعرض لأيِّ تحريفٍ، بينما مُنِيت الكتب السماوية بالتحريف وأفرغت من كثيرٍ من

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ – ١٧٤

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٨

محتواها قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1]، واحتفاظ الرسالة بمحتواها العقادي والشريعي هو الذي يمكّنُها من مواصلة دورها التربوي، وكل رسالة تفرغ من محتواها بالتحريف والضياع لا تصلح أداة ربط بين الإنسان وربه، لأنَّ هذا الربط لا يتحقق بمجرد الانستماء الاسمي بل التفاعل على محتوى الرسالة وتجسيدها فكراً وسلوكاً ....

رابعاً: إنَّ هذه الرسالة جاءت شاملةً لكل جوانب الحياة، وعلى هذا الأساس استطاعت أنْ توازن بين تلك الجوانب المختلفة وتوحِّد أسسها، وتجمع في أطارٍ صيغة كاملة بين الجامع والجامعة، والمعمل والمعقل، ولم يعد الإنسان يعيش حالة الانشطار بين حياته الروحية وحياته الدنيوية.

خامساً: إنَّ هذه الرسالة هي الرسالة السماوية الوحيدة التي طبَّقت على يد الرسول الذي جاء بها، وسجلت في مجال التطبيق نجاحاً باهراً، واستطاعت أنْ تُحوِّل الشعارات التي أعلنتها إلى حقائق في الحياة اليومية للناس.

سادساً: إنَّ هذه الرسالة بنزولها إلى مرحلة التطبيق دخلت التأريخ وساهمت في صنعه، إذ كانت هي حجر الزاوية في عملية بناء أمةٍ حملت تلك الرسالة واستنارت بهداها.

سابعاً: إنَّ هذه الرسالة لم يقتصر أثرها على بناء الأمة، بل امتد من خلالها ليكون قوة مؤثرة وفاعلة في العالم كله على مسار التأريخ، ولا يزال المنصفون

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩

من الباحثين الأوروبيين يعترفون بأنَّ الدفعة الحضارية للإسلام هي التي حَرَّكت شعوب أوروبا النائمة من نومها ونَبَّهَتها إلى الطريق)).[1]

فلو أخذت هذه الكلمات والأفكار وآمن الإنسان بها لاستطاع حقيقة من إنشاء الدولة المثالية الواقعية التي تؤمِّن حاجات الناس، كما استطاع تحقيق ذلك من قبل النبي ﷺ من إقامة ذلك، وخصوصاً في ذلك المجتمع الذي كان يؤمن بالسلب والنهب بل وصلت به القسوة إلى دفن البنات أحياءً وغير ذلك من الأعمال التي لا تتلائم والفطرة الإنسانية التي خلق الله الإنسان عليها، إذن إنَّ تجربة الدولة وتأسيسها من قبل النبي ﷺ ودوامها حتى بعد وفاته ﷺ لمدة من الزمن –وإنْ كان قصيرة– أثبتت نجاح ذلك النظام على إنشاء دولةٍ عادلةٍ يعيش الإنسان فيها بسلامٍ وأمانٍ.

مما تقدم نفهم الخطوة الكبيرة في تأريخ المرجعية الدينية التي أقدمَ عليها السيد الشهيد الصدر ﷺ من تَبَنِّي العمل أو الدعم السياسي، وذلك من خلال المشاركة الفاعلة في تكوين أو بلورة الجذور الأساسية للعمل الإسلامي على الساحة، وأنا في هذا السطور لا أريد أنْ أقيم الدليل على إثبات ذلك من خلال كلماته وبياناته فإنه أمرٌ واضحٌ كالشمس في رابعة النهار ولعله يأخذنا إلى موضوع آخر، بل أريد أنْ أشير إلى ذلك إجمالاً من أننا – المفكرون المسلمون من علماء ومثقفين وجميع الطبقات المؤمنة بمبادئها– لنا القدرة الكاملة على إقامة الحكومة الإسلامية التي بدورها تقيم العدل

(١) ينظر: المصدر السابق ص ٨١-٨٥

الإنساني ورفع مستوى الإنسانية لدى الإنسان، وبالفعل فقد استطاع ﷺ أنْ يثبت ذلك من خلال تهيأة جيلٍ واعٍ لهذه القضية بل مستعدٍ لأنْ يضحي بنفسه الغالية من أجل تحقيق هذه الغاية و((الجود بالنفس أقصى غاية الجود)) وما كانت شهادته السامية وشهادة العديد من ذلك الجيل إلا مصداقاً حقيقياً للإيمان بهذه القضية، وهو إنشاء الحكومة العادلة في بقعةٍ ما على الأرض، وخصوصاً لو كانت هذه البقعة هي منبت الفكر والتراث والثقافة ومهبط الرسالات والأنبياء والمصلحين، حيث هي أحرى أنْ تتبنّى ذلك، لما تمتلكه من تأريخ فداءٍ وتضحيةٍ مشرقٍ.

أعتقد أنه من خلال هذه الكلمات أصبحت الرؤيا لدينا واضحة حول مفهوم الإنسان والدولة والربط بينها وكيفية دعوة أحدهما للآخر والغاية من إقامة الدولة الإسلامية.

الإنسان والدولة بين النظرية والتطبيق.

قد يسأل القارئ للسطور التي مضت حول إمكانية التطبيق لهذه النظريات الفكرية للشهيد الصدر ﷺ في المجتمع، وخصوصاً في مجتمعنا العراقي في هذه الأيام العصيبة التي نمر بها وحيث وجود ثلة من تلامذته وممن يؤمن بدعوته ويدعو إليها ؟!

وللإجابة عن مثل هذه الأسئلة يمكننا الحديث حول ذلك في نقاط عدة :-

١ - إنَّ البناء الاجتماعي لقيام الدولة لا يمكن أنْ يقوم ويتأسس بدون أنْ يُبنى البناء الداخلي للإنسان الذي هو محور قضية كل بناء -كما مر- وعدم العمل وفق هذه الخطوات فإنه بناءٌ على جرفٍ هارٍ.

٢ - إنَّ بناء الإنسان لا يمكن أنْ يكون جذرياً وبسرعةٍ ما لم تكن الظروف المحيطة به مؤهلة لاستقبال أي فكرة جديدة تريد تحويل ما مضى من أفكار عميقة يؤمن بها، فلا يمكننا أنْ نتحدث مع الإنسان الذي لا يملك قوت نفسه وعياله عن المبادئ الإنسانية التي يجب الاعتقاد والعمل بها والدعوة إليها وهو لا يملك ما يُأمِّنُ له أدنى سبل الحياة الكريمة، نعم يمكننا أنْ نوضِّحَ له فلسفة الابتلاء والصبر والمجاهدة ولكن ليس بأفواه المُترفين الذين لا يفهمون من المبادئ إلا الألفاظ والقشور، ويريدون دوماً ولا يعطون شيئاً، ولقد رأينا أمثلة كثيرة -للأسف- من هؤلاء.

٣- إنَّ ما يدعو إليه الشهيد الصدر ﷺ يمكن تطبيقه لأنَّ ما ينادي به هو لسان الدعوة الإسلامية في القرآن الكريم والسنة الشريفة وحاشا لله تعالى أنْ يدعو إلى شريعة طوبائية لا يمكن تطبيقها في الواقع العملي.

٤- إنَّ مجتمعنا اليوم – نعم اليوم فقط- لا يمكنه أنْ يهضم هذه الأفكار ويؤمن به لا بسبب عدائه أو صدوده عن الدعوة الإسلامية، بل بسبب المخلفات والأزمات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والأمنية وغيرها التي تعرض لها على مدى عدة عقود من الزمن حتى سلبت منه روح الأمل في الحياة ومحاولة التغيير والإصلاح للمجتمع، حيث صار يفكر بنفسه – وله العذر – كيف يخلصها من عبودية وذل تلك المخلفات والأزمات.[1]

وغير ذلك من الأسباب والمعوقات ..

---

(١) إنه لا يخفى على كل إنسانٍ غيورٍ ما مرَّ به الإنسان المؤمن في العراق من أنواع الأذى والمعاناة حيث القتل والتشريد ودفن الأحياء والفقر والذل والهوان وكل أنواع القهر الذي مارسه النظام الدكتاتوري وبمساعدة ومرأى من يدَّعون الإسلام والعروبة وهي منهم براء، وبعد أنْ فرَّج الله تعالى عنهم ذلك البلاء وأهلك فرعون وأشياعه رأينا ما نراه اليوم من تكالب أعداء المؤمنين علينا من كل حدبٍ وصوبٍ وما أدى ذلك إلى الأذى والقهر والحرمان، فيجب علينا أنْ نعالج هذا الواقع الذي يمر به الإنسان وتحقيق جزء من العدالة ليكون بعد ذلك مستعداً لتلقي الأفكار والعمل على تحقيقها، فيجب التأكيد على الجانب العملي في الوقت الحاضر دون النظري أو التنظير غير الملائم من بعضٍ للأسف، إنه يجب أنْ تدرس تلك المعوقات دراسة جدية لنخفف عن الناس الآلام التي مرَّت عليهم ليذيقوا أثر تطبيق الدعوة الإلهية دون السماع بها أو الوعود لها وبذلك يحصل رد الفعل الذي لا يقف أمامه أي علاجٍ أو دواءٍ وهذا ما يحاول بثه أعداء الإسلام في العراق وغيره والعمل على تطبيقه بأي أسلوبٍ.

إذن ما يجب أنْ نؤمن به ونعترف به صراحةً إننا أمامَ خطرٍ كبيرٍ يحيط بالإنسان العراقي وبالتالي بالمجتمع العراقي، ويجب علينا أنْ نشخص الحالة المرضية بدقةٍ متناهيةٍ إنْ كُنا ندعي الإصلاح ونريد صلاح الإنسان والمجتمع، فنشارك الأنبياء والمرسلين في دعوتهم التي كانوا يدعون لها، فبعد ذلك التشخيص يجب علينا أنْ نسرع بالعلاج النفسي أولاً الذي يعيد للنفس الاطمئنان وروح الحياة والأمل، ومحاولة تحقيق ذلك لهم ثانياً، وليس الصعود والارتقاء عن طريق علاج جراحات الطواغيت فقط .

في الختام أتمنى أنْ أكون قد استعرضت الحقيقة الناصعة للإنسان والمجتمع الباحث عن أسرار تكوينه، وهدف خلقه، وغاية رسالته، وأنْ تكون هذه الكلمات تذكرة لنا ولجميع أخوتنا في مراجعة أنفسهم وتخليصها من أدران اليأس والتقاعس نحو الأمل والعمل من أجل الخير والصلاح، ولتكون مصداقاً حقيقياً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾. (١)

رحم الله تعالى شهيد العراق والأمة الإسلامية الخالد، السيد محمد باقر الصدر، الشهيد المظلوم، الذي عاش روحاً وجسداً غريباً بين قومٍ لا يفقهون ما يدعو إليه إلا قليل منهم، فعاش غريباً بذلك الفكر العظيم الثاقب بين أقوام على أبصارهم غشاوةٍ وعلى قلوبهم أكنةٍ وفي آذانهم وقراً، ولكن المبدأ لن يموت أبداً، وإن الحق لا تخبو أنواره، وإنَّ الظلام لا يدوم، وإنَّ الله ناصر رسله ولو بعد حين، ومن أصدق من الله وعداً.

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٩

خاتمة:

• من خلال الاستقراء لأفكار السيد الشهيد الصدر ﷺ نرى أنه كان يؤكد تأكيداً بالغاً على البناء للشخصية الإنسانية عموماً والإسلامية خصوصاً، أما الإنسانسة فإنه لو استطعنا أنْ نحافظ على الإنسان من تلويث فطرته السليمة فإنه بالتالي سيكون مستعداً لقبول النظام الأصلح الذي يحقق له السعادة دون الغرور بالكلمات والأقوال التي تُطلق من هنا وهناك، أي لا يكون بالتالي أداة بأيدي الآخرين يفعلون به ما يشاء وهذه خطوة كبيرة يبحث من خلالها الشهيد الصدر على إيجاد مجتمعٍ واعٍ يمكن أنْ يُتحاور معه عن طريق العوامل المشتركة الأخرى، وهذا أمرٌ مهمٌّ في خلق مجتمعٍ يتطلع إلى نجاته، أما المجتمع المسلم فهو أحقُّ بذلك حيث الدعوة الإسلامية للأخوة الإنسانية بين الناس، وهذا ما نلمسه من وصية أمير المؤمنين ﷺ لمالك الأشتر بقوله: ((الناس صنفان؛ إما أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق)) وهذا الفكر هو الذي يجب أنْ يُرسَّخ في إيِّ مجتمعٍ بل في كل نفسٍ لو أردنا الوصول إلى التفاهم والحل السلمي للحقوق في الحياة، ولكني أرى أنْ لا يكون ذلك على أساس التنازل الكبير للحقوق، وهذا ما نراه وللأسف في بعض جوانب المجتمع مما يسبب الويلات الكبيرة وعلى المدى البعيد ..

• نلاحظ من خلال دراسة آرائه ﷺ أنه يؤكد على الحالة العملية التي يمكن تطبيقها إلى جانب الحالة العلمية وليس التفريق بينهما أو وضع النظريات المعقدة التي لا يمكن أنْ تجد لها طريقاً للتطبيق والواقع، وهذا في رأيي هو

السبب الأساس في نجاح دعوته على الرغم من التضييق والمعاناة، ولكنها استطاعت أنْ تُكَوِّن دستوراً لمن يريد الصلاح والإصلاح، بل صارت دعوته عالميةً لو فسح لها المجال أو بالأحرى لو تصدى مَنْ يروِّجها وينشرها في المعاهد العلمية بين المفكرين والمثقفين والطلبة دون الاغترار بالفلاسفة الغربيين الملحدين، ولكن للأسف هذا واقع المجتمعات وخصوصاً العربية منها التي لا تؤمن بطاقاتها بل تُكَرِّس كل جهودها لإخمادِ أو وأدِ أيِّ فكرة صالحة للتغيير لمجرد اختلاف بسيط في قومية أو معتقد، فهذا خطرٌ كبيرٌ يحيط بالثقافة العربية وكذا الإسلامية ويجب علينا أنْ نتصدى لذلك بكل ما أوتينا من قوةٍ دون القناعة بأقل الثمار فإنها يمكن أنْ تُسلب يوماً، أما ذلك الخطر الكبير فعلينا لو أردنا البناء الكبير للمجتمع الإسلامي عامة ومجتمعنا العراقي خاصة أنْ نعظِّم هؤلاء المفكرين الذين لم يُفَكِّروا يوماً بأنفسهم، بل كانت أعظم غاياتهم الوصول إلى النجاح الاجتماعي وهذا دور يقع على المتصدِّين للمراكز الحيوية وخصوصاً التربوية منها، لأنَّ أفكار علمائنا تنبع من الواقع الذي يعيشون فيه وليس الفكر الدخيل الذي يُراد أنْ يُطبق بكل شدة دون جدوى ..

• إنَّ فكر السيد الشهيد الصدر ﷺ فكراً حياً لن يموت لأنه ينبثق من صميم الشريعة الإسلامية النابعة من الله تعالى، ومن يتأمل كلماته ومؤلفاته وأفعاله وسيرته يلتمس هذه الحقيقة بدون أدنى شك وهذه هي آثار الصدق في القول والعمل وتأثيرهما على الآخرين، فيجب على القوى العاملة والفاعلة في

المجتمع أنْ تجعل هذا السلوك نصب عينيها، لأننا قوم نؤمن بأنَّ المبادىء ينبغي أنْ نحافظ عليها ونرسِّخها في الإنسان والمجتمع وهذه هي رسالة الأنبياء ..

• أخيراً أتمنى أنْ ندرس ما تقدَّم من الكلمات في تلك الصفحات لنضع الخطط الصحيحة لعلاج واقع مجتمعاتنا وأنْ نجعل لكل فرد في المجتمع أهمية دون العزوف عنه بمجرد الوصول إلى أدنى الغايات النفسية، وخصوصاً المؤمن في العراق فإنه قد عانى ما لم يعانيه غيره من تَحَمُّل الأذى والويلات بكل أشكالها من أجل المحافظة على الخط الرسالي لأهل البيت عليهم السلام والمتمثل بالقيم والمبادىء التي كانوا يدعون الناس إليها، وكذا المحافظة على الشعائر الإسلامية الخالصة رغم التحديات والقتل والتشريد وما كان من توابعهما، فيجب علينا أنْ نجعل كل ذلك نصب أعيننا وخصوصاً أصحاب السلطة والقرار الذي ينتمون لخط ومدرسة السيد محمد باقر الصدر فلا تكن دعوتهم مجرد الحصول على ما فات دون الالتفات إلى مشاعر الناس –لا سمح الله– وقد رأينا بعض هذه الأمور فيما مضى من بعض، أتمنى أنْ تقدِّس دماء الشهيد الصدر بالسير على خطاه وما كان يصبو إليه من مراعاة الإنسان والمجتمع لا مجرد كلمات وألفاظ وشعارات ..

وآخر دعوانا أنِ الحمدِ لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

- الفتاوى الواضحة، السيد محمد باقر الصدر، تعليقات السيد كاظم الحائري، ١٤٢٤هـ، ط٢، مط شريعت، الناشر: دار البشير.

- المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، السيد محمد باقر الحكيم، مط العترة الطاهرة، ٢٠٠٦م، قم، الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ﷺ.

- المدرسة الإسلامية، السيد محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- موسوعة الفلسفة، د.عبد الرحمن بدوي، ط ١، ١٤٢٧هـ ،مط سليمان زاده، قم، الناشر: ذوي القربى.

- نظرة عامة في العبادات، السيد محمد باقر الصدر، مط الانتصار، بغداد، ١٩٧٨م.

- نهج البلاغة، محمد عبده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مط الإستقامة، مصر.

الفهرس

مقدمة	٥
تمهيد	٩
المحور الأول / الغاية من خلق الإنسان	١٣
المحور الثاني / الدور الرسالي للإنسان في المجتمع (الاستخلاف)	٤٢
المحور الثالث / الإنسان وبناء الدولة	٥٢
الإنسان والدولة بين النظرية والتطبيق	٦٢
خاتمة	٦٥
قائمة المصادر والمراجع	٦٩
الفهرس	٧٠

ملحق

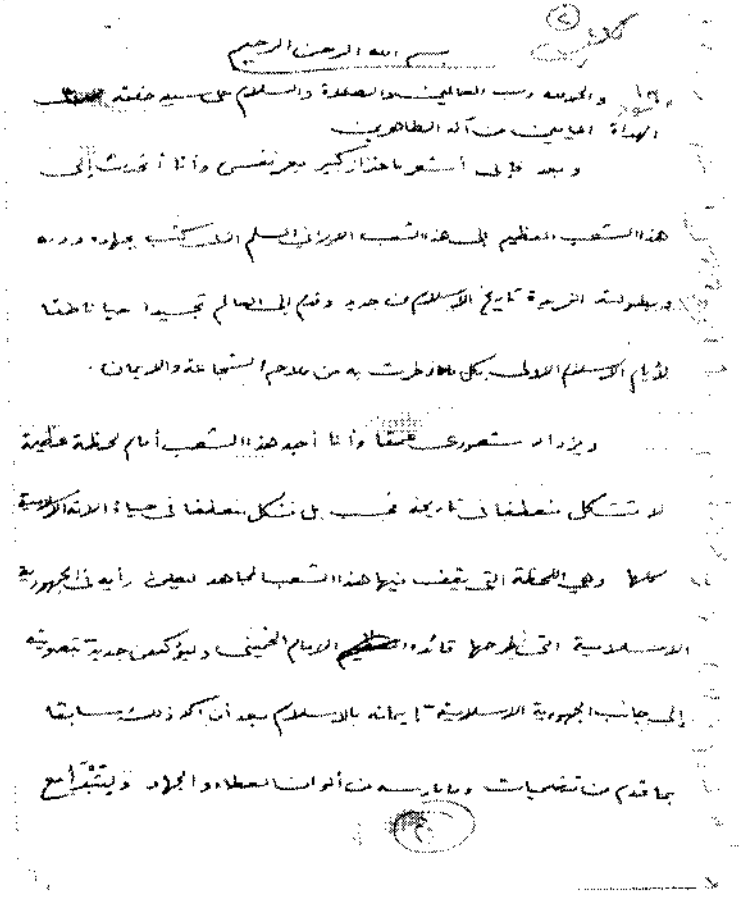

صفحات من كتاباته (قده) حول الأوضاع في العالم الإسلامي

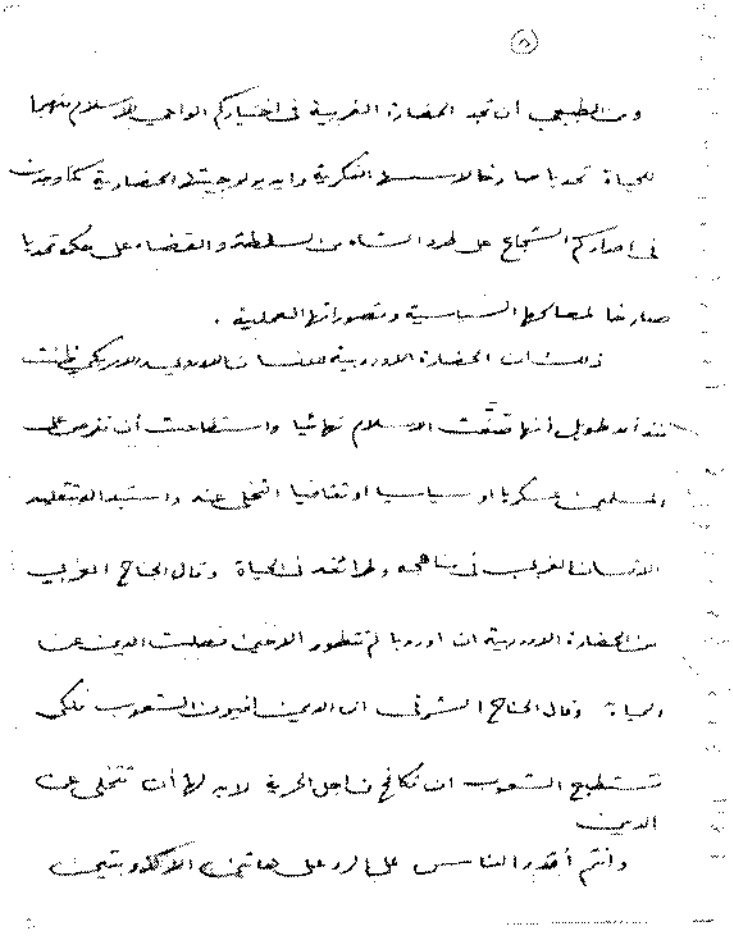

صفحات من كتابه (قده) في الاقتصاد الإسلامي

من اليمين السيد علي السيستاني، السيد الصدر، السيد جمال الدين الخوئي، السيد علي الوداعي

من اليمين السيد إسماعيل الصدر، الشيخ محمد جواد مغنية، السيد الصدر

من اليمين الشيخ علي كاشف الغطاء، الشيخ محمد حسين القائيني،
السيد الصدر، السيد الخميني.